الدكتور محمد السعدي فرهود

الكوثر العذب

القــاهرة

١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م

الطبعـة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على الرسول النبي العربي المبين ، وعلى آله وصحابته والتابعين ، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فأقدم إلى المكتبة العربية هـــذه المجموعة من أدب العربية ، انتخبتها بخاصة من عصرين :

أولهما : عصر الأندلس - الذى امتـد أكثر من ثمانية قرون من عام ٩٣ هـ - وهو عام الفتح العربي - حتى انحسار المد الإسلامى عن هذه البلاد فى عام ٨٩٨هـ .

والآخر : العصر الاسلامى الوسيط - الذى بدأ من سقوط بغداد فى أيدى التتارعام ٦٥٦هـ ، واستمر زهاء ستة قرون ، إلى بداية عصر النهضة الحديثة ، يؤرخونه بالحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣هـ .

والأدب فى كلا العصرين لم يتوفر عليه الدارسون والباحثون بالقدر الذى أتيح لسائر العصور ، ومازال بحاجة ملحة إلى التنقيب عن آثاره ، والفحص عن فنونه وألوانه واتجاهاته .

وأرجو من الله العون والمدد والتوفيق .

المحرم ١٣٩٦هـ - يناير ١٩٧٦م

محمد السعدي فرهود

طارق على باب النصر

الخطيب :

هو طارق بن زياد ، فاتح الأندلس ، باسم مولاه موسى بن نصير ، والى إفريقية من قبل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك .

مناسبة الخطبة :

أذن موسى بن نصير لطارق بن زياد وطريف بن مالك ، من مواليه وقادة جيشه ـ أن يعبرا البحر المتوسط من بر المغرب إلى البر الشمالى سنة ٩١هـ .

ونزل طارق وطريف فى بلاد الأندلس فى مكانين مختلفين ، ثم استجمعا جيشهما ، وتلبث طارق إثر رسالة وصلته من موسى بن نصير يستوقفه فيها ويمنيه المدد ، وعلم طارق أن « لذريق » ملك القوط نهد لحربه فى سبعين ألف فارس ، فعزم على قتاله غير متلبث ـ قالوا : وارتجل هذه الخطبة :

الخطبة :

(أيها الناس : أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم . وليس لكم ـ والله ـ إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه . وأسلحته وأقواته موفورة . وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ماتستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ـ ذهب ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة . وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولاحملتكم على خطة ـ أرخص متاع فيها النفوس ـ أربأ عنها بنفسى .

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه أوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات الرومان ، الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله - تعالى - ولى إنجادكم على مايكون لكم ذكراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب إلى مادعوتكم إليه ، وأنى - عند ملتقى الجمعين - حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله إن شاء الله تعالى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه ، فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكفوا الهم من فتح الجزيرة بقتله ، بعده يخذلون) .

المفردات :

الصدق : المراد به الشدة . موفورة : كثيرة . لا وزر : لا ملجأ . ذهب ريحكم : كناية عن التبدد والضياع ، والريح بمعنى القوة والغلبة والدولة . المناجزة : المقاتلة . نجوة : أى مكان بعيد : أربأ عنها بنفسى : أى أرتفع عنها . العقيان : الذهب . عزبان : جمع عزب وهو من لا زوجة له . الأصهار : الأقارب من جهة الرجل . الأختان : الأقارب من جهة المرأة . المجاهدة : المضاربة . اكفوا الهم : أى اكفوا أنفسكم الهم أى امنعوه وردوه .

تحليل :

لقد شعر القائد الخطيب بخطورة الموقف ، فأراد أن يشعر جنوده بها ، وبالحاجة إلى الثبات ، ومواجهة العدو ، وأن يدلهم على طريق النصر ، ويزينه

لهم ، ويغريهم بالقتال فى سبيل الله ، لإعلاء كلمته وإظهار دينه ، ووعدهم أن يكون معهم وكأحدهم فى العزم والنضال .

واستغل الخطيب ماهم فيه أحسن استغلال ، فقد كانوا بحاجة إلى تثبيت أقدامهم لينالوا الحياة ، فإن لم يدفعوا عن أنفسهم حصدهم الموت وهم محصورون بين البحر والعدو . واستغل عقيدتهم فى الجهاد ، فدعاهم إلى انتزاع النصر أو الشهادة فى جنب الله . واستغل رغبتهم فى متاع الدنيا ، فنبه إلى وفرة البلاد بالغنى والجمال وحذرهم التهوين من أمر عدوهم فقد دفع نفسه لمقاتلتهم بجيش كثيف تلزم مناجزته وإن فرصة القهر عليه مواتية . وأذكرهم أن الخليفة اختارهم واثقاً فى شجاعتهم وجراءتهم ، وفى حبهم للجهاد وملاقاة الأقران . وعرفهم أنه ليس بنجوة مما حذرهم إياه ، وقد عزم على أن يقودهم إلى النصر وأن يحمل بنفسه على ملك القوط ، وأوصاهم إن هلك فعليهم أن يختاروا خليفة يقودهم إلى النصر والظفر .

وأسلوب الخطبة ـ كما ترى ـ سهل واضح اللفظ والمعنى ، قريب من الفطرية بعيد عن الصنعة والتأنق . ومع هذا جاءت الخطبة قوية الأثر ، لأنها اعتمدت على الإقناع فى أكثر من موضع ، فإنهم فى مكانهم هذا قد انحصروا بين البحر والعدو وهم فى هذه الجزيرة لن تحميهم إلا سيوفهم ، ولن يجدوا مايقتاتون به إلا مايستخلصونه من عدوهم ، وإنهم لقادرون على الوصول إلى الهدف وإلى المتاع الموفور إذا بذلوا قليلا من المشقة ، وإنهم الصفوة المختارة لهذا الفتح وما أعظم فتحاً يباركه الله .

وفى الخطبة عدة صور أسهمت فى توضيح المعنى ، ومنها قوله فى أول الخطبة: (البحر من ورائكم والعدو أمامكم) وفى بعض الروايات أن السفن التى كانت تنقل الجيش العربى كانت عدتها أربع سفن وكانت تنقل الجيش فصائل فصائل ، وانتهز طارق عودتها إلى بر المغرب فنبه جنوده فى خطبته إلى انحصارهم بين البحر والعدو ، وكلاهما محذور مخوف ، فلا أمان لهم إذن إلا بالحركة الزاحفة المنتصرة ولاتكون حركتهم نحو البحر ، فلتكن نحو العدو . ويقول لهم : إنهم فى هذه

الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، فيقرر واقعا فرضه الموقف السابق ، إذ لن يجدوا من يحنو عليهم ويحن إليهم ، فإن لم يأخذوا أنفسهم بالنشاط الحربى ضاع سعيهم وخاب مايؤملون . وفى عبارته : (إن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت) دعوة إلى الثبات واسترخاص النفوس فى سبيل النصر ، والموت إذن سبيل الحياة ، وليست حياة الأفراد تهم بقدر ماتهم حياة المجتمع واستقامة أمر الدين.

والناس من قديم على هذا ، ومن أمثالهم فيه : « احرص على الموت توهب لك الحياة » ، ويقول شاعرهم :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة غـير أن أتقدما

ومما صوره الخطيب ـ عن طريق التشبيه والكناية ـ ماعليه نساء الجزيرة من الحسن والجمال والثراء والترف ، فهن حور أو أشبه بحور الجنان ، وهن رافلات فى الدر والمرجان والذهب ، وهن فى بسطة من العيش مقصورات فى قصـور الملوك .

نخلة غريبة وشاعر غريب

الشاعر :

هو صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بعبد الرحمن الداخل وهو من أمراء البيت الأموى ، رأى دولة آبائه وأجداده تسقط فى أيدى العباسيين سنة ١٣٢ هـ ورأى جيش العباسيين يحصد آله حصداً ، ففر هارباً يلتمس لنفسه النجاة ، وما جاوز منطقة الخطر حتى أغذ السير إلى أقصى المغرب ، وكون من موالى قومه هناك جيشاً انتقل به إلى بلاد الأندلس ، فانتزع الإمارة من يد الوالى الأموى ، وكون فى سنة ١٣٨ هـ دولة جديدة ، اضطلع هو وخلفاؤه بتوطيد أمرها ودعم استقلالها ، ومنافسة بغداد فى السياسة والآداب والفنون والعلوم .

النص :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى ... يسح ، ويستمرى السماكين بالوبل

المفردات :

الرصافة : ضاحية من ضواحى قرطبة . النوى والتنائى : البعد . غوادى المزن : ما تغدو من السحاب أى تنزل فى الغدوة أول النهار . يستمرى السماكين : يحتلبهما والسماكان نجمان نيران . الوبل : المطر الشديد .

تحليل :

أدركت الغربة هذا الفتى المشرق برغم ما أصاب من ملك عظيم . وهذه نخلة

بأرض الأندلس تبدت له وسط قصره فى الرصافة ، فأذكرته أهله وأرضه ، وعهده بالنخل أن ينبت فى بلاد المشرق لا المغرب .

هاجت النخلة فى نفسه ذكريات وطنه الأول ، فوضع شخصه منها موضع القرين من قرينه ، فكلاهما غريب فى مكانه هـــذا ، وكلاهما طالت به النوى ، وكلاهما استقر فى هذه الديار ديار الغربة ، وكلاهما لم يعد به أمل أن يعود إلى منبت الأرومة . وإذا كان قد اختار هو قدره ولا مفر من قدره إلا أن يتقبـــل الواقع ويلتمس الحياة ، فلتكن النخلة ـ رفيقه غربته ـ أهلا للحياة ، ولهذا يدعو لها بالسقيا . والدعاء بالسقيا لم يكن مألوفا إلا فى جزيرة العرب لقلة المطر ، وقد صحب الشاعر معه هذه الصورة من الثقافة المشرقية .

وحديث الشعر عن الطبيعة قديم فى أدبنا العربى ، ومنه حديث الشعراء فى الجاهلية عن الأطلال وبكاؤها واستبكاؤها ، وكان الدافع لهم أول الأمر انتقالهم عبر الصحراء للنجعة وطلب المـاء . وفى الإسلام نأى الناس عن مواطنهم الأولى مجاهدين فى سبيل الله ، وأتيح للشعراء منهـم أن ينسجوا على منوال الحنين وشكوى الغربة .

وفى العصر الأندلسى عاد لهذا اللون من الحديث نشاطه وفتاؤه .

برغوث فى الهيئة الاجتماعية

الكاتب :

هو ابن شهيد ، أحد كتاب الأندلس وشعرائه النابهين ، ولد ونشأ فى قرطبة ، وشهد عهد الناصر (عبد الرحمن الثالث) ، وهو عهد بلغ فيه الأندلس أوج المجد السياسى والاجتماعى والعلمى . واشتهر ابن شهيد برسالته المسماة (التوابع والزوابع) وهى رسالة انتقادية فى أسلوب خيالى تهكمى ، نهج فيها منهج أبى العلاء المعرى فى (رسالة الغفران) . وتوفى ابن شهيد سنة ٤٢٦ هـ .

النص :

(أسود زنجى ، أهلى وحشى ، ليس بوان ولا زميل ، وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل ، أو نقطة مداد ، أو سويداء فؤاد ، شربه عب ، ومشيه وثب . يكمن نهاره ، ويسير ليله ، يدارك بطعن مؤلم ، ويستحل دم البرىء والمجرم . مساور للأساورة ، ويجرد نصله على الجبابرة . لايمنع منه أمير ، ولا تنفع فيه غيرة غيور ، وهو أحقر حقير . شره مبثوث ، وعهده منكوث ، وكفى بهذا نقصانا للإنسان ، ودلالة على قدرة الرحمان) .

المفردات :

الوانى : البطىء . الزميل : الضعيف . سويداء الفؤاد : حبة القلب وهى نكتة سوداء . يدارك : يتابع . مســاور للأساورة : مهاجم لها والأساورة الأبطال واحدها أسوار (بالضم أو بالكسر) . منكوث : منقوض .

تحليل :

بلغ اهتمام الأندلسيين بالوصف مبلغا عظيما ، فوصفوا كل ما وقع عليه

حسهم ، وأودعوا أدبهم - شعره ونثره - تصويرهم لما يصفونه من الحيوان والطير والنبات والجماد .

والمطلع على نثرهم المكتوب تروعه : وفرة ألفاظه ، وسعة أساليبه ، وكثرة البديع فيه فى عفوية أو ما يشبه العفـــوية . وقد أولعوا منه بالسجع والطباق والجناس بخاصة .

وهذه القطعة فى صفة البرغوث . وفيها ثلاث ظاهرات :

ظاهرة فكرية - إذ جعل للبرغوث مكانا فى الهيئة الاجتماعية ، فهو أهلى مستوحش ، يساور الأساورة والجبابرة ، ولا يمتنع منه كبير ولا صغير . والإنسان أمام هذا البرغوث عاجز عن إفنائه ، وغير قادر على قتاله ، فكأن الخالق قد خلقه هو وأمثاله من الحشرات الدنيا لمقاومة غرور الإنسان وصلفه ، وليتذكر أن قدرة الله لا تقف عند حد ، وكفى بهذا نقصا للانسان ، ودلالة على قدرة الخـالق .

وظاهرة أسلوبية — تتجلى فى اعتماد الكاتب على السجع والجناس والطباق والتشبيه . . والقطعة كلها مسجوعة . ومن الجناس : مساور للأساورة ، وغيرة غيور ، وأحقر حقير . ومن الطباق : أهلى وحشى ، ويكمن نهاره ويسير ليله ، والبرىء والمجرم ، ونقصان الإنسان وقدرة الرحمان . ومن التشبيه : كأنه جزء من ليل أو نقطة مداد أو سويداء فؤاد . ومنه على سبيل الاستعارة : يستحلى دم البرىء ، وعهده منكوث .

ومن هذه الظاهرة الأسلوبية : استيعاب الوصف من عدة جهات ، فقد وصف لونه الأسود فألحقه بعدة أشباه . ووصف عمله وحركته فهو يشرب عبا ، ويمشى وثبا ، ويتابع عمله بالطعن المؤلم . ووصف نشاطه ودأبه فهو نشيط دءوب غير

وان بطىء وغير زميل ضعيف ، وإنه لينشط بالليل ويكمن بالنهار للاستراحة والهرب من التعقب .

وظاهرة فنية – نستنبطها من اهتمام الأندلسيين بمثــل هذا الحديث عن البرغوث وأمثاله ، مما يدل على رفاهة ثقافية ، فكأنهم استنفدوا كافة الموضوعات الجادة . أو كأنهم أرادوا أن يدلوا على أن العبرة فى مقـدرة الأديب على تناول موضوعه ، عظيما كان أو تافها فى نظر النـاس . .

ظلم الحبيب

الشاعر :

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، صاحب (العقد الفريد) ، ولد فى قرطبة ونشأ بها ، وألم بعلوم عصره ، وكان أكثر اشتغاله بالأدب والتاريخ والأخبار . وكتابه العقد الفريد موسوعة فى هذا كله ، ومصدر من مصادر الثقافة الأندلسية . تطالع فيه كثيراً من شعره ونثره ، وكلاهما رقيق .

وتوفى الشاعر فى سنة ٣٢٨ عن ٨٢ عاما .

النص :

إذا جئتها صدت حياء بوجهها ... فتهجرنى هجراً ألذ من الوصل
وإن حكمت جارت على بحكمها ... ولكن ذاك الجور أشهى من العدل
كتمت الهوى جهدى ، فجرده الأسى ... بماء البكا ، هذا يخط ، وذا يملى
وأحببت فيها العذل حبا لذكرها ... فلا شىء أشهى فى فؤادى من العذل

تحليل :

هذا حديث فى الغزل يشبه أن يكون عذريا .

١ - المحب يأتى مواصلا ، ولكن المحبوبة تصد عنه وتعرض ، من حياء لا من كراهة ، والمحب - لأنه محب - يلتذ هذا الصدود ، ويعتده ألذ من الوصال ، إذ يكفيه منها القليل والرفض ، كما قال جميل .

وإنى لأرضى من بثينة بالذى ... لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ، ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله

٢ - وشرعة الهوى تقضى بالتدانى والقرب ، ولكن المحبوبة تحكم بالتنائى والبعد وتنفذ حكمها فيه ، والمحب - لأنه محب - يلتذ منها هذا الجور ، بل إنه لأشهى إليه من العدل نفسه .

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه ... يوما فقد جهل المحبـــة وادعى

٣ ـ وحاول أن يكتم هواه ، فأظهره ما لاح وبدا من حزنه وأساه ، وماسال وانهمر من دمعه . وتعاون الأسى والدمع على إظهار ما كتم ، فكانا كالمملى والكاتب ، يملى الأسى ويخط الدمع . وهذه ـ كما ترى ـ صورة ينتزعها الشاعر من واقع مهنته .

٤ ـ وكل شىء له صلة بالمحبوبة محبوب ، حتى ملامة اللائمين وعذل العاذلين ، صارا أشهى إلى فؤاده ، لأن فى حديث اللوم والعذل ترديدا لاسمها وتذكرة بها ، على حد قول العاشق :

أجد الملامة فى هواك لذيذة ... حبـــا لذكرك ، فليلمنى اللوم

والمعانى فى هذه الابيات مطروقة ، عرفها ابن عبد ربه فيما قرأه للمشارقة ، ولكنه صاغها فى أسلوبه الغنائى الرقيق .

دعوة الى وادى الغرام

الشاعر

هو أبو القاسم محمد بن هانىء الازدى الاندلس. نشأ فى إشبيلية ؛ ونزع - كأبيه إلى قرض الشعر ، ومازال يتوفر عليه حتى برع فيه ، واستوى له أسلوبه الخاص الذى يحتذى أسلوب أبى الطيب المتنبى ، فلقبوه (متنبى المغرب) :

عرف بالغلو ؛ والمبالغة فى المديح ، كقوله فى المعز لدين الله الفاطمى :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

ولك الجوارى المنشآت مواخراً ... تجرى بأمرك والرياح رخاء

قد حالت الأفهام فيك فدقت ال ... أوهام فيك ، وجلت الآلاء

فعنت لك الأبصار، وانقاد بك ال ... أقدار ، واستحيت لك الأنواء

غامرته فعجزت عن إدراكه ... لكنه بضمائرى ومعقول

فافخر ، فمن إنشائك الفردوس إن ... عدت ، ومن إحسانك التنزيل

وهذه الأقوال وأمثالها مبثوثة فى شعره ، تنطق بانحرافه عن جادة الصواب ، وتقضى عليه بسوء الأدب فى حق الله تعالى .

كذلك مال ابن هانىء إلى اصطناع الفلسفة ، وانتحال الآراء الغريبة ، وكانت فيه أيضاً خفة إلى اللهو والمعابثة والغزل الفاضح .

وارتحل ابن هانىء إلى المغرب ، فاتصل بجوهر الصقلى قبل رحيله إلى مصر لفتحها باسم الفاطميين ، واتصل بالمعز الذى طلب إليه أن يلازمه ويكون شاعره . وشعر ابن هانىء فى مدح الشيعة يدل على تعصبه لهم .

وتوفى ابن هانىء سنة ٣٦٢ ﻫ عن ٣٦ عاما ، وكان فى طريقه إلى مصر للقاء المعز ونزل «برقة» فعربد فى بعض حاناتها ، وعربد عليه بعض الأشقياء فقتله .

النص :

١ ـ فتكات لحظك أم سيوف أبيك — وكئوس خمر أم مراشف فيك
٢ ـ أجلاد مرهفة ، وفتك محاجر — ما أنت راحمة ولا أهلوك
٣ ـ يا بنت ذى البرد الطويل نجاده — أكذا يكون الحكم فى ناديك
٤ ـ قد كان يدعونى خيالك طارقا — حتى دعانى بالقنا داعيك
٥ ـ عيناك أم مغناك موعدنا . وفى — وادى الكرى ألقاك أم واديك
٦ ـ منعوك من سنة الكرى وسروا فلو — عثروا بطيف طارق ظنوك
٧ ـ ودعوك نشوى ما سقوك مدامة — لما تمايل عطفك اتهموك
٨ ـ حسبوا التكحل فى جفونك حلية — تالله ما بأكفهم كحلوك
٩ ـ وجلوك لى إذ نحن غصنا بانة — حتى إذا احتفل الهوى حجبوك
١٠ـ ولوى مقبلك اللثام وما دروا — أن قد لثمت به وقبل فوك

المفردات :

المراشف : أمكنة الرشف والمص ويقصد الشفاه . المرهفة : يقصد السيوف وهى مرهفة أى حادة . المحاجر : يقصد العيون ، والمحاجر جمع محجر وهو مادار بالعين من جميع الجوانب وبدا من البرقع . النجاد : حمالة السيف وطول النجاد كناية عن طول القامة وهو نعت غالب على ذوى الشرف . التكحل : وضع الكحل فى العين ، والكحل ـ بالتحريك ـ سواد منابت الأهداب خلقة . لوى مقبلك اللثام : طواه وأخفاه وستره ، والمقبل : موضع التقبيل وهو الفم .

تحليل :

هذه الأبيات افتتح بها الشاعر مدحة فى يحيى بن على ، وقد بدأها بالغزل تقليداً ، وجاء الغزل عليه مسحة من أسلوبه ، ومن اتجاهه إلى وصف المحبوب وتصوير حسنه وجماله .

١ - بدأ الشاعر الغزل متسائلا على طريقة العارف المتجاهل ؛ فهذا الذى أصاب قلبه وجرح فؤاده : أهو طرف المحبوبة ونظراتها الآسرة المصمية أم سيوف أبيها المدمية ؟ وهذا الذى أدار عقله وأسكر لبه أهو الرضاب المعسول ومراشف الفم اللاذ أم كئوس الخمر ؟ .

٢ - وأنكر على محبوبته - متجاهلا أيضاً - أن تجتمع عليه أجلاد السيوف المرهفة الحادة التى سلها أهلها لحربه ، وآثار العيون التى تفتك به من غير سلاح مادى ، فإن وقع نظراتها عليه كوقع سيوف أهلها ، كلتاهما جارحة قاتلة ، والمحبوبة صوبت نظرها إليه فجرحته ولم ترحمه ، كأهلها الذين أشرعوا سهامهم ولم يرحموه .

٣ - ثم عرج على صفة أهلها ، فهم أهل وجاهة وشجاعة وشرف ، وقد اعتاد أمثالهم أن يلبسوا البرود للوجاهة ، ويحملوا السيوف للشجاعة ، ويفدوا إلى النوادى ليشاركوا بالرأى والكلمة . وقوم كهؤلاء ينتظر منهم العدل والنصفة ، ولكنهم جاروا عليه ، وقضوا بحرمانه من لقائها ، فاستحقوا أن ينكر عليهم هذا الجور ، وأن ينكر على محبوبته انصياعها لهذا الجور ولجوءها إلى الصد والهجران .

٤ - ويذكر أن المحبوبة كانت تعطف عليه ، ويطرقه خيالها يدعوه إليها ، فيلبى النداء ، لما يجد فيه من الراحة وبرد الشوق . تبدلت الحال فصارت الدعوة بأدوات الحرب والقتال ؛ ليلقى مصرعه ، أو ليشهد مصرع حبه .

٥ - ومع ذلك يطمع فى إقبالها عليه ، فهو يسأل عن الوصال المرتقب : أيكون فى مغناها ودارها يقظة أم فى المنام - وفى رواية (عيناك أم مغناك) فهو يأمل أن تستقبله خيالا فى منامها . وفى رواية (عيناى أم مغناك) فهو يطمع أن يزوره طيفها . وفى الحالين يبدو راضيا بقليل من عطفها .

والشاعر شبه الكرى بالوادى أو جعل له واديا ؛ لأن الحالم تتسع رؤاه مع ضيق الحيز الذى يتحرك فيه ، وكذلك الوادى بين الجبلين محصور محدود الرقعة ولكنه وسيع على قطانه .

٦ ـ وقال الشاعر : إن أهل المحبوبة ؛ من غيرتهم عليها ومبالغتهم فى هذه الغيرة ؛ منعوها النوم ، حتى لا يطرق طيفها عينى صاحبها ، وجعلوا يفتشون عن طيفها ليردوه ، وكلما عثروا بطيف طارق ظنوه طيفها . وفى هذا تصوير لمناوأتهم لهذا الحب المغرم واضطهادهم إياه .

وأخطأ الشاعر خطأ فكريا فى هذا : إذ أن طيف الخيال يطرق عينى المحب دون ما اعتبار ليقظة صاحبة الطيف أو منامها . وهو خطأ وقع لبعض الشعراء من قديم كقيس بن الخطيم فى قوله :

ما تمنعى يقظى فقد تؤتينه   فى النوم غير مصرد محسوب

وكالبحترى فى قوله :

هجرتنا يقظى وكادت على عا   داتها فى الصدود تهجر وسنى

بيد أنهم جميعا أرادوا أن لقاء المحبوبة عسير حتى فى المنام .

٧ ـ مازال أهل المحبوبة يصادرون الحب . إذا شاهدوها تتمايل وتسير سير التثنى اتهموها بحب صاحبها والميل إليه ، وإن بدت نشوى اتهموها بالصبابة ولوعة الغرام ، وفاتهم أن ما يشهدون من التثنى والنشوة خلقة وطبيعة . ولا نستبعد أن الشاعر إنما يقصد تأثير الغـــرام عليها تأثيراً كبيراً ، وأن ما يبدو من التثنى وانصراف عقلها عما فيه قومها هو من أثر اللذة بالغرام وطول الفكر فيه .

٨ ـ وصور الوهم لقومها ـ حين نظروا كحل عينيها ـ أنها اكتحلت لتتزين للمحب ولقائه . لقد أخطئوا ووهموا ، ولم يقم لديهم دليل ، هل باشروا تكحيلها حتى تسوغ لهم دعواهم ، ونسوا أن ابنتهم ذات جمال فطرى ، لا يفتقر إلى التطرية.

٩ ـ وأشار الشاعر إلى أنهم جلوها له وأظهروها وسموها باسمه منذ الصبا ، منذ كانا صغيرين كغصنى البان ، حتى إذا شبا عن الطوق ، واحتشد الهوى فى فؤاديهما حجبوها خشية الغواية أو التمادى فيها . وهذه ظاهرة اجتماعية ما تزال فى عادات الناس حتى اليوم .

١٠ - وبلغت المحبوبة مبلغ النساء ، فألزموها اللثام ، وطوى هذا اللثام مقبلها. ظنوا أنهم يعصمونها من المحب وقبلاته ، وما دروا أن مكانه غير خاف عليه.

* * *

ونلحظ عدة أمور :

أولها : تركيز الشاعر على التصوير الحسى .

ثانيها : اصطناع المبالغة ، وخاصة فى حديثه عن غيرة القوم ، ومصادرتهم الطيف ، وصدامهم العاشق الولهان .

ثالثها : الإقرار بالطيش والنزق فيما ادعاه أنه ينال من محبوبته مآربه ، برغم الحجاب المفروض عليها .

رابعها : الاتكاء على الصناعة اللفظية ، كأسلوب تجاهل العارف ، وكاللف والنشر فى الأبيات الأول والثانى والخامس .

منطق اللحظة الراهنة

الشاعر :

هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى . ولد فى قرطبة سنة ٣٨٤هـ وألم بعلوم قومه وعصره إلماما أهله للوزارة ولأن يتصدر للفتيا والتأليف فى علوم الدين والقرآن والحديث واللغة والفلسفة والطب والأدب والتاريخ ، وبلغت تصانيفه زهاء أربعمائة مصنف ، من أشهرها كتابه (الفصل فى الملل والنحل) وتكلم فيه على مذاهب الفلاسفة ومعتقدات أهل الكلام ، وكتابه (أخلاق النفس) ، وكتابه (الناسخ والمنسوخ) فى الحديث .

ورحل ابن حزم إلى المشرق وهو على مذهب الإمام الشافعى ، وعاد من رحلته وقد انتقل إلى مذهب داود الظاهرى الذى ظهر فى بغداد فى أواخر القرن الثالث الهجرى . وتعرض ابن حزم من جراء هذا للتسفيه والمناظرة ، حتى استهدف إلى فقهاء وقته ، فمالوا إلى بغضه ورد أقواله ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، وطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى أن انتهوا به منقطعا أثره بتربة بلدة من بادية لبلة ، وبها توفى رحمه الله»[1] سنة ٤٥٦ هـ .

النص

جعلت اليأس لى حصناً ودرعاً ... فلم ألبس ثياب المستضام

.. وأكثر من جميع الناس عندى ... يسير صاننى دون الأنام

إذا ما صح لى دينى وعرضى ... فلست لما تولى ذا اهتمام

تولى الأمس ، والغد لست أدرى ... أأدركه . ففى ماذا اغتمامى

---

(١) عن معجم الأدباء لياقوت جـ ١٢ ص ٢٤٨ القاهرة . بة ١٣٠٢ هـ

تحليل

١ - يعترف بأنه تحصن باليأس ورأى فيه أمانا من المذلة والهوان ، فهو يهرب من الحياة ويطلب السلامة ، ويزعم أن ذاك بقية الضيم ، فإنه إذا خاض غمار الحياة اضطر إلى أن ينافق ويجامل ويساهل ويجارى فى كثير من أمره ، وهذا سلوك يصيره خاضعا للمواضعات الاجتماعية ويقيده بقيودها التى لا تعطيه الحرية بقدر ما تفرض عليه العبودية ، فالهروب من هذه العبودية أفضل عنده ، وهذا هو الهروب الذى سمـــاه يأساً ، وتجسم له اليأس حصنا ودرعا ، فهو مأواه الذى يتحصن به ويتدرع ، صيانة ووقاية .

٢ - ويرتاب فى صلاح أكثر الناس للحفاظ على المودات والبقيا على الصداقات ، ويرى أن القليل من الناس هم الذين يصونون المودة ويبقون على الصداقة ، وهؤلاء القليل عنده أكثر قيمة من سائر الناس الذين لا يرعون الصلات الإنسانية .

٣ - ويعلن أنه يكتفى من الحياة بأن يسلم له دينه ويسلم له عرضه . فإذا سلما استطاع أن يرفع رأسه ولا يبالى بعد ماذا يكون ، أما إذا أصيب فيهما فهو الذل الأبدى ، والخزى السرمدى .

٤ - وهو يشغل نفسه بوقته الراهن ، فليس ما يدعو إذن للتفكير والاغتمام وشغل القلب لا بما مضى ولا بما هو آت ، فإن ما مضى تولى وانقضى ولا يغيره الهم منه والفكر فيه ، وإن ما يأتى فى ضمير الغيب ، فلا يدرى على أى وجه يقع وهل يدركه أو لا يدركه ؟ فمن البلاهة ارتقابه ورصده .

****

وهذه الأفكار لا تحمل فلسفة عميقة بقدر ما تعرض وجهة نظر ، نشأت - هى وأمثالها - عن تجاريب مرت بالشاعر ، وهذه التجاريب تفيد فى معالجة الأمور وتفسيرها ، لأنها تصدر عن الوجدان الاجتماعى .

والشاعر يساير منطق نفسه فى الجنوح إلى السلبية والقنوط ، والركون إلى اليأس من صلاح الحال ، وكره الحياة كما هى ، حتى اتهم أكثر الناس - إن لم يكونوا كلهم - بقلة الوفاء .

ولقد نحمد له أن يشغل بصحة دينه وصحة عرضه ، فإن فى صيانتهما صيانة للكرامة ، وليس بعد أن تطيب صلة الإنسان بربه شىء إلا أن يكون العرض نقيا لا تلغ فيه كلاب البشرية .

وفى الأخير يذهب مذهب أهل اللحظة الراهنة ، فيرفض الفكر فيما مضى وفيما يستقبل من الزمان ، مع أن العقلاء يرون الفكر فيما مضى مجالا للعبرة والاستبصار ومعالجة ما يعرض ويجد من أمور الحياة ، ويرون الفكر فى المستقبل متفقا مع ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأمل .

الكوثر العـــذب

الشاعر :

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون ، ينتمى إلى قبيلة « مخزوم » القرشية وفد أبوه على الأندلس ، ونشأ فى قرطبة ، وتولى قضاءها ، وأنجب فيهـــا ابنه « أحمد » فى سنة ٣٩٤هـ على كبر .

وتلقى أحمد مبادىء العلوم والمعارف من أبيه ومن أئمة عصره وبلده ، فحصل كثيراً من أشعار العرب وتواريخها وأيامها وأمثالها وفلسفتها ، ونبه قدره ، فاستخدمه « أبو الحزم بن جهور » من ملوك الطوائف ، ثم استوزره ، ولم يلبث السعاة أن أفسدوا الصلة بينهما ، فطوح به أبو الحزم إلى السجن ، وبمعونة من « أبى الوليد بن أبى الحزم » - وكان صديقاً له - فر من سجنه إلى « أشبيلية » ثم عاد إلى « قرطبة » وزيراً لأبى الوليد هذا بعد وفاة أبيه ، وتقلبت بابن زيدون الدنيا حتى توفى سنة ٤٦٣ هـ .

مناسبة القصيدة

وقد أتيح لابن زيدون فى قرطبة أن يتصـــل بمحبوبته « ولادة » وهى بنت المستكفى بالله أحد الأمراء فى دولة الحموديين بالأندلس ، وكانت فتاة لعوبا متبدية ، أصفت للأعيان الود وسحـــرتهم بأدبها وشعرها ، فهاموا بها وتعلقوا بإشارتها وطمعوا فيها ، ولكنها صدتهم عما وراء الرضا .

ويقول صاحب قلائد العقيان : « ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه دونها ويهدر ، لسوء أثره فى ملك قرطبـة وواليها ، وقبائح كان ينسبها إليه ويواليها ، أحقدت بنى جهور عليه ، وسددت أسنتهم إليه . فلما يئس من لقياها ، وحجب عنه محياها ، كتب إليها يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، ويعتـــذر من

فراقها بالخطب الذى غشيه ، والامتحان الذى خشيه ، ويعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ، ولا خبا مابين ضلوعه لها من ملتهب جمر . وهى قصيدة ضربت فى الإبداع بسهم ، وطلعت فى كل خاطر ووهم ، ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم » .

النص :

(أ) ذكريات :

١ - أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

٢ - ألا - وقد حان صبح البين - صبحنا ... حين ، فقام بنا للحين ناعينا

٣ - من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم ... حزنا مع الدهر لايبلى ويبلينا

٤ - أن الزمان - الذى مازال يضحكنا ... أنساً بقربهم - قد عاد يبكينا

٥ - غيظ العدا من تساقينا الهوى ، فدعوا ... بأن نغص ، فقال الدهر .. آمينا

٦ - فانحل ماكان معقوداً بأنفسنا ... وانبت ماكان موصولا بأيدينا

٧ - وقد نكون ومايخشى تفرقنا ... فاليوم نحن ومايرجى تلاقينا

٨ - ياليت شعرى - ولم نعتب أعاديكم ... هل نال حظاً من العتبى أعادينا

٩ - لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأياً ، ولم نتقلد غيره دينا

١٠ - ما حقنا أن تقروا عين ذى حسد ... بنا ، ولا أن تسروا كاشحا فينا

١١ - كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا ، فما لليأس يغرينا

١٢ - بنتم وبنا ، فما ابتلت جوانحنا ... - شوقا إليكم - ولا جفت مآقينا

١٣ - نكاد - حين تناجيكم ضمائرنا - ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

١٤ - حالت لفقدكم أيامنا ، فغدت ... سودا ، وكانت بكم بيضاً ليالينا

١٥ - إذ جانب العيش طلق من تألفنا ، ... ومربع اللهو صاف من تصافينا

١٦ - وإذ هصرنا فنون الوصل دانية ... قطافها ، فجنينا منه ماشينا

المفردات :

التنائى : البعد . والتدانى : القرب . والتجافى : المقاطعة .

ألا : لغة فى هلا (كلتاهما بالتشديد) ، وهى كلمة تحضيض ، وتتضمن الحث على الفعل إن دخلت على المضارع واللوم على ترك الفعل إن دخلت على الماضى . حان صبح البين : جاء وقته والبين الفراق ه والحين : (بالفتح) الموت والهلاك . والناعى الذى يعلن النعى أى نبأ الموت .

الملبسينا حزنا ؛ الذين ألبسونا الحزن . انتزاحهم : افتراقهم . لايبلى ؛ (ثلاثيا) لاينفد . ويبلينا : (رباعيا) يهلكنا .

انبت : انقطع وزناً ومعنى .

ليت شعرى : بمعنى ليتنى أعرف . نعتب (رباعيا) . نعطى العتبى : والعتبى هى الرضا .

الكاشح : العدو ، وكل من يضمر العداوة كاشح كأنه يطوى كشحه عليها .

بنتم وبنا : أى بعدتم وبعدنا . الجوانح : الأضلاع والمراد ماتنطوى عليه وهو القلب . المآقى : جمع مأق وهو مجرى الدمع من العين أو مقدم العين أو مؤخرها وتطلق المآقى على العيون أيضاً .

الأسى : الحزن . التأسى : التعزى والتصبر .

حالت أيامنا : تحولت من حال إلى حال .

مربع اللهو : ملعبه .

فنون الوصل : أى أنواعه وضروبه وألوانه . هصرنا : أملنا . شينا : أصلها شئنا سهلت الهمزة . قطافها : أى ثمرتها .

تحليل

افتتح الشاعر قصيدته بالحديث عن التنائى ، الذى أضحى بديلا من قربه وعن التجافى الذى ناب عما كان يلقاه من طيب اللقيا ، فأشار بهذا ـ من أول الأمر ـ إلى عذاب نفسه ، ذاك العذاب الذى دعاه أن يستحث الموت والهلاك فى صبيحة يوم البين ، حتى لايحس أنه كان مختاراً فى فراق محبوبته ، بل إن الموت كان أروح له . وتعاوده الحياة ، فيطلب من يبلغ أحبته الذين ألبسوه الحزن ـ بسبب هذا الفراق ـ أن الزمان يقهره ، ويضطره إلى البكاء ، فهو يقابل بين مسراته السوالف وآلامه الحاضرة ، وكأن الزمان استجاب للأعداء الذين حسدوا ما كان يلقاه من هناءة ووصال ، فأثلج الزمان صدور الأعداء ، لأنه هو ومحبوبته قد صارا إلى حال من الانحلال والانفكاك لايرجى معها اللقاء ، بعد أن كانا على حال من الاجتماع لم يخافا معها التفرق .

ويخشى الشاعر المحب أن تنصرف محبوبته عنه وعن حبه ، فتنيل هؤلاء الأعداء ماحرص هو جاهداً على ألا ينيلهم إياه ، ويحيل على الوفاء الذى دان به فى شرعة الحب ، ويطمع فى أن تدين به محبوبته ، فلا تسلوه ، حتى لاتقر بالسلوى أعينهم . ويقول فى مرارة : إنه كان يظن اليأس من حبها يحمله على النسيان ، فجربه ، ولكن تجربته حملته على الولوع بها ، ووقع البعاد ـ مظنة اليأس ـ فما فارقت نار الشوق جوانحه ، وماتوقفت الدموع فى عينه ، وكاد يسلم نفسه إلى الهلاك ، لولا أثارة من التأسى ، يعلل فيها نفسه باللقاء القريب ، ذاك اللقاء الذى كان له منه فى الماضى أشباه ونظائر ، رفهت لياليه ، وبيضتها بالمباهج والمسرات ، ومنحته الأنس والألفة بمن يحب ، والوصال دانية قطوفه . واليوم تحولت حاله إلى الحرمان ، وأمست أيامه سوداً قاتمة ، تجثم على صدره ، بل أصبح لايرى فى شمسها وضحاها إلا مرائى نفســـه الكالحة ، بسبب مايلقى من الصد والهجران .

والقصيدة - كلها - ممتلئة بالصور، التى قصد الشـاعر منها أن تجلو معانيه وأفكاره، وتجسم خاطراته وإحساساته. فمن أول الأمر عرض - عن طريق المقابلة - صورة ما هو واقع فيه من بعد وجفوة مقابلا بما كان ينعم به من قرب وطيب لقيا. ثم ألح عليه الحزن وشقه الفراق فتمنى أن لو كان أسلم روحه إلى بارئها، لأنه صار لا يطيق صبرا عن بعد المحبوبة. وصور أن حزنه هذا قد غشيه كما يغشى الكساء لابسه. وجعل يصور حاله الراهنة فى مقابلة حاله السالفة بصورة البكاء الذى يستدره الآن مقابلا بالأنس السار المضحك الذى كان منذ قريب ينعم به. وأبعد فى التصور فتصور أن حساده استجيبت دعوتهم فيه فانحلت الصلة بينه وبين محبوبته بسبب هذه الدعوة. واستبد به القلق وهو يتوهم أن محبوبته قد ترضى - بانصرافها عنه - عدوهما، فهو يدعوها إلى ألا ترضيهم، ويعلى من قيمة الوفاء فى حب الأحرار.

وهو يعلن أنه كان يظن فى اليأس سلوة عن الحب فجربه، فما زاده إلا ولوعا وحرصا على الحب والمحبوب، والدليل على هذا ما فى قلبه من الشوق الحار وما فى عينه من الدمع المنسال. ثم جعل يوازن بين ليالى أنسه إذ جانب العيش طلق ومربع اللهو صاف وفنون الوصل دانية القطاف وبين سواد واقعه، وقد استعار للوصل فنونا فهو يهصرها ويرشح الاستعارة بقوله: (فجنينا منه ماشينا).

(ب) دعاء وعهد:

١٧ - ليسق عهدكم عهد السرور، فما كنتم لأرواحنـا إلا رياحينا

١٨ - لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ان طالما غـير النأى المحبينا

١٩ - والله لا اطرفت أهواؤنا بدلا عنكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا

٢٠ - يا سارى البرق، غاد القصر، واسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا

٢١ - واسأل هنالك.. هـل عنى تذكرنا
إلفا، تذكـره أمسى يعنينـا

٢٢ - ويا نسيم الصبا ، بلغ تحيتنا   من لو على القرب حيا كان يحيينا

٢٣ - فهل أرى الدهـــر يقضينا ، مساعفة
منه ، وإن لم يكن غباً تقاضينـــا

المفردات :

أن طالما : تقرأ (أن) مفتوحة فهى مصدرية موصولة بلام محذوفة ، وتقرأ مكسورة فهى شرطية وجوابها محذوف يدل عليه ما قبلها .

اطرفت : (بالتشديد) بمعنى استحدثت . وفى رواية (طرفت) بمعنى نظرت . وفى رواية (طلبت) ، وهو ينفى أنه استحدث حبا جديدا أو نظره أو طلبه .

سارى البرق : المراد منه السحاب يسرى ليلا . غاد القصر : باكره فى الغداة وهى أول النهار .

عنى يعنى : (بالتشديد) شغل يشغل .

مساعفة : إسعافا ومبادرة . لم يكن غبا تقاضينا : أى لم يكن طلبنا قليلا .

تحليل

كان عهد الهوى عهد المسرات ، فالشاعر يدعو له بالحياة ، كما عاشها واقعا ، وكما يتوقعها فى استبقاء حبها ، واحتشاد أمانيه فيها ، وعدم انصرافه عن هواها . ويدعو الشاعر السحاب أن يغادى قصر محبوبته ، ويصوبه كفاء ما سقت محبها من صرف الهوى والود ، ويود أن يخبره (هل تشغل محبوبته به وبحبه مثلما يشغل هو بها). ويحمل نسيم الصبا تحيته إليها ، ويتمنى أن يسعفه الدهر منها بالوصال .

وفى هذه الأبيات نلحظ أن الشاعر يلتصق بالطبيعة ، فهو يستدعيها لتشاركه فى إحساسه ، وفى نقل مشاعره إلى محبوبته ، يدعو المطر إلى سقيا عهد السرور والقصر وساكنيه ، لأنه يتمثل كل أولئك أحياء تستحق أن تمد بزاد الحياة .

ويدعو سارى البرق أن يتعرف أحوال محبوبته وشواغلها ، لأنه هو مهموم بما يدور فى خلدها ، قلق على مكانته فى ضميرها ، ويدعو نسيم الصبا أن يحمل عنه تحيته إليها ، ففى رد تحيتها حياته هو . وبعد ذلك بأبيات نرى الطبيعة نفسها ممثلة فى جمال المحبوبة ففى صحن وجنتها زهر الكواكب ، وفى خديها ورد غض جلاه الصبا ، وفى القرب منها حياة مزهرة ذات فنون ، ونعيم ذو غضارة ووشى .

ومن التصوير — كما رأيت — اعتباره محبوبته ريحانة لروحه ، وهذه الدعوات لعهد المسرات بالسقيا ولسارى البرق أن يغادى القصر ويسائل عن ساكنته ولنسيم الصبا أن يبلغها تحيته وللزمان أن يقضيه الوصال إسعافا .

وانتقلت إلى الشاعر معان وعبارات وصورة مشرقية ، وهذا أمر يشيع فى شعر الأندلسيين بعامة . وفى هذه الحالة يبدو الشاعر كأنما يقبس من عالم قومه المثالى أو الأسطورى .

ونحن لا نحمل على هذا الاتجاه ، بل نعده علامة الصحة الثقافية ، لأنه استقر فى نفس الشاعر من حيث لا يشعر ، فصار جزءاً من كيانه الفكرى ، وارتكز عليه بيانه وتصويره . ومن أمثلة ذلك : الدعاء بالسقيا ومخاطبة السحاب ، ونسيم الصبا . وهذا النسيم نفسه — ماذا يكون طيبه فى بلاد الأندلس ؟ إنه يهب فى شبه الجزيرة العربية من المشرق — من جهة الخليج العربى — طيبا ، فإذا جاء إلى بلادنا — (مصر) — تحول إلى ريح (السموم) ، وقلما ينتهى إلى المغرب ، ولكنه الإرث الثقافى كما قلنا .

(ﺟ) المحبوبة الجميلة :

٢٤ — ربيب ملك ، كأن الله أنشأه	مسكا ، وقدر إنشاء الورى طينا
٢٥ — أو صاغه ورقاً محضاً ، وتوجه	من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا
٢٦ — إذا تأود آدته رفاهية	توم العقود ، وأدمته البرى لينا

٢٧ - كانت له الشمس ظئْراً فى أكلته بل ما تجلى لها إلا أحايينا
٢٨ - كأنما أثبتت فى صحن وجنته زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
٢٩ - ماضرأن لم نكن أكفاءه شرفاً وفى المودة كاف من تكافينا
٣٠ - يا روضة طالما أجنت لواحظنا ورداً - جلاه الصبا - غضاً، ونسرينا
٣١ - ويا حياة تملينا بزهرتها منى ضروباً ، ولذات أفانينا
٣٢ - ويا نعيماً خطرنا من غضارته فى وشى نعمى ، سحبنا ذيله حينا
٣٣ - لسنا نسميك ، إجلالا وتكرمة وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
٣٤ - إذا انفردت وما شوركت فى صفة ، فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

المفردات

الورق (بكسر الراء) : الفضة . المحض : الخالص . ناصع التبر : لامعه والتبر الذهب يشبه به شعرها الأشقر .

تأود : تثنى وتمايل . آدته توم العقود : أثقلته والتوم جمع تومة وهى الحبة من الفضة . أدمته البرى : أسالت دمه والبرى الخلاخيل واحدتها برة .

الظئر : المرضع والعاطفة على ولد غيرها من الناس وغيرهم - يشبه الشمس بها . الأكلة : جمع كلة وهى الستارة الرقيقة .

زهر الكواكب : الكواكب المزهرة اللامعة . تعويذا : رقية .

أجنت لواحظنا ورداً : جعلت عيوننا تجنى ما يشبه الورد . غضا : طريا ، النسرين : نوع من الورد أبيض ذو رائحة عطرة .

تملينا : تمتعنا . الغضارة : النعمة . وشى نعمى : أى نعمة موشية أو ذات وشى والوشى الزينة وثوب من الحرير منقوش .

تحليل

يستحضر الشاعر جمال محبوبته ، حين يرسمها لنا ، ربيبة ملك ، رافلة فى النعيم والرفاهة ، فائقة على بنات جنسها فهى مخلوقة من المسك وغيرها مخلوق من الطين ، بيضاء صافية ، ذات شعر أشقر ، تصففه على هيئة التاج ، تتأود لنعومتها الزائدة من العقود ، وتدميها الخلاخيل ، مخدومة ، لها من يكفيها شئون قصرها ، ذات جمال طاغ ، تطالعها فتتملى بمثل الكواكب الزهر . ويقر على نفسه أنه - بالشرف والمنصب الاجتماعى - غير كفء لها لكن مايحمله من المودة لها والحب يجعله جديراً بها . وهنا يذكر النعمة الغامرة ، التى طالما نعم بها فى حضرتها . وطابت له ملذاته ومناه وخطر منه - مزدهيا - فى بحبوحة من العيش يتملى بالملذات ويزهى بذلك ويتطاول على أقرانه .

ولما كان هذا كله لا يتصور وقوعه إلا لواحدة من النساء ، ذات قدر عال ، لا تشارك فى صفاتها ، يقول لها : إنه اجلالا لهذا القدر العالى لا يسميها ، فإن وصفها يدل عليها ، ويشير إليها ، لأنها منفردة بمزاياها التى لا تشركها فيها واحدة من بنات جنسها .

* * *

وهذه الأبيات احتشدت فيها الصور البيانية ، فعن طريق التشبيه رأينا الفضة الخالصة فى بياض بشرتها ، والكواكب الزهر فى صفحة خدها ، والورد الغض فى خدها . وعن طريق الكناية عرفنا المحبوبة من عنصر ملكى طيب . وأن شعرها زينة لها تعقصه على هيئة التاج ، وأن الرفاهة وصلت بها إلى أن العقود والخلاخيل تثقلها وتدميها ، وأنها منعمة مخدومة لا ترى الشمس إلا فى أكنانها . كما أنه يرفع من قدرها فلا يسميها باسمها إجلالا لها ، إذ حسبه الوصف إيضاحا وتبيينا ، لأنها متوحدة فى صفاتها .

* * *

ولم يقتصر الشاعر على بث حديث الغرام والشوق والهيام ، ووصف ما ألم به

من الجوى والضنى ، وما أطاقه من الشوق واللوعة ، وإنما عرج على محاسن محبوبته الجسدية ، وعيشتها الناعمة الرافهة ، وإن يكن قد أعطانا صورة جميلة عنها فما نظن أنه قصد إليها لتحلية شعره ، وإنما قصد إليها غزلا ، يطرق بها مشاعر محبوبته ، ويشعرها أنها فى عينه ـ وهو المحب ـ مثال الجمال الفائق ، وليس من ريب أن المرأة يسرها حديث الناس عن جمالها ، وحلاوتها وطراوتها ونعومتها (والغوانى يغرهن الثناء) ومن هنا امتزج الغزل الحسى والغزل المعنوى فى هذه القصيدة .

(د) نجـوى :

٣٥ - ياجنة الخلد ، أبدلنا بسدرتها
والكوثر العـذب ، زقوما وغسلينا
٣٦ - كأننا لم نبت ، والوصـل ثالثنا
والسعـد قد غض من أجفان واشينا
٣٧ - إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء ، ففى
مواقف الحشر نلقـاكم ، ويكفينا
٣٨ - سران فى خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينـا
٣٩ - لاغرو فى أن ذكرنا الحزن ، حين نهت
عنه النهى ، وتركنا الصبر ناسينا
٤٠ - إنا قرأنا الأسى يوم النـوى سوراً
مكتوبة ، وأخـذنا الصبر تلقينا
٤١ - أما هواك فـلم نعدل بمنهـله
شربا ، وإن كان يروينـا فيظمينا
٤٢ - لم نجف أفق جمال - أنت كوكبه -
سـالين عنه ، ولم نهجره قالينـا

٤٣ ـ ولا اختيـــاراً تجنبناه عن كثب
لكن عـــدتنا على كره عواديـنـــا

٤٤ ـ نأسى عليك ، إذا حثت مشعشعة
فينـا الشمـول ، وغنانا مغنينـــا

٤٥ ـ لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتياح ، ولا الأوتار تلهينـــا

المفردات :

السدرة : سدرة المنتهى ـ قالوا : هى شجرة فى الجنة عظيمة الظل . والكوثر : نهر من أنهار الجنة أعطيه النبى . الزقوم والغسلين : من أطعمة أهل النار .

النهى (مفرداً) العقل ، وقد يكون جمع نهية (بالضم) وهو العقل .

سالين : جمع سال اسم فاعل من سلا بمعنى نسى وصبر . وقالين : جمع قال اسم فاعل من قلا بمعنى كره وأبغض .

عن كثب : عن قرب . عدتنا العوادى : صرفتنا والعوادى صروف الزمان .

الشمول المشعشعة : الخمر الممزوجة بالماء .

تحليل :

يبث الشاعر محبوبته نجواه ، فيبدأ النجوى بمثل ما بدأ به القصيدة :

يوازن بين ما كان فيه من نعيم الحب والوداد ، وما هو فيه الآن من جحيم الهجران والبعاد ، ويتذكر ليالى اللقيا والوصال السعيدة المسعدة ، حيث كانا يلتقيان ، ويطويان الليالى ، لايحس بهما أحد ، ولا يشعران بمرور الزمن ، إلا ساع تلوح تباشير الصباح الفضاح ، ويقول : إن العقل يدعوه إلى الصبر ونسيان الحزن ، ولكن لوعة الفراق أعمق أثراً من الانصياع للعقل وما يدعو إليه ، حتى بدا الصبر شيئاً خارجاً عن ذات النفوس ، فهو يستدعى ويتطلب ويجتلب ،

ولكن هواها لم يفارق ذات نفسه ، فما يزال يرشفه ويمص رحيقه وينشد فيه الري ، وإن كان كلما شرب منه تجددت رغبته فيه ، صنيع الهوى المبنى . وإنه لم يفارقها بإرادته ، ولم يجفها سلواً ونسياناً ، وماهجرها كرهاً وقلى ، ولكنها العوادى أرغمته على الرحيل .

وإذا كان قد أرغم على الفراق الجسدى والاغتراب فانه يتمثل محبوبته أمامه ويقيد خاطره بها وينصرف بحقيقته إليها عن مجالس الشرب والغناء ، مهملا ما تدعو إليه هذه المجالس من انطلاق ، بل لم تستطع هذه المجالس أن تصرف طيفها عنه أو تبدد صورتها الجميلة من خاطره .

وما زال الشاعر يتكىء على الصورة فى تمثيل حاله ، فهو يستعير زقوم النار وغسلينها لشقائه الواقع ، وسدرة الجنة وكوثرها لنعيمه الزائل ، ويقابل بين هذا وذاك . ثم يشخص الوصل حيث جعله ثالثهما عند اللقاء كأنه هو الذى دبر أمره ، ويشخص السعد أيضاً حيث جعله الحارس الأمين لنجواهما .

ويستعير لكلا شخصه وشخص المحبوبة حين الوصال لفظ السر ، ويرشحه بأن يجعله مكتتما فى خاطر الظلماء إذ يتخيلها ذات خاطر ، كما يجسم الصبح فى صورة إنسان ذى لسان . ثم يقدم الدليل على تمكن حبها من فؤاده ، إذ يجعل ريه من هواها سبباً فى ظمئه إليها وكلما شرب منه ازداد رغبة فيه ، وإنه مبق على هذا الحب ذاكره فى كل حين حتى فى الحين الذى يمسح الفكر وهو حين القصف والطرب والغناء ، وإنه ليذكر الحزن (حين نهت عنه النهى) وينسى الصبر الذى تدعو إليه النهى ليشير إلى أنه بلغ حالا أذهبت عقله وبددت رشـــده ، فهو ـ كما قال ـ لم يعد يعرف الصبر إلا أن يأخذه تلقينا ويقرأه مكتوباً .

(ﻫ) الجواب المطلوب :

٤٦ - دومى على العهد - مادمنا - محافظة
فالحر من دان إنصافاً كما دينا

٤٧ - فما استعضنا خليلا منك يحبسنا
ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا

٤٨ - ولو صبا نحونا من علو مطلعه
بدر الدجى لم يكن - حاشاك - يصبينا

٤٩ - أولى وفاء ، وإن لم تبذلى صلة
فالطيف يقنعنا ، والذكر يكفينا

٥٠ - وفى الجواب متاع ، إن شفعت به
بيض الأيادى ، التى مازلت تولينا

٥١ - عليك منى سلام الله مابقيت
صبابة بك نخفيها فتخفينا

المفردات :

صبا : مال . يصبينا : يستهوينا .

أولى : أنعمى . والصبابة : بمعنى القليل . وقوله : (نخفيها فتخفينا) بمعنى نسترها فتظهرنا ، والفعل ثلاثياً أو رباعياً يأتى بمعنى ستر وأظهر - ضد -

تحليل :

وأخيراً يطلب إليها أن تدوم على العهد محافظة ، مادام هو محافظاً عليه ، فإن هذا من شيم الأحرار ، ويطمئنها إلى أنه لم تلفته عنها أية أنثى مهما تعاظم جمالها ، ولم يصب إلى غيرها ، ولن يصبو . فلتنعم المحبوبة عليه بالوفاء وبالوصال ، وإن لم تقدر على تحقيق هذا الوصال فلا تبخل بذكر محبها فى ذات نفسها ولترسل طيفها

يحوم عليه ، وحبذا لو أجابته ، بهذا تسدى اليه يداً بيضاء ، ماينفك يذكر أمثالها منها .

ويختم القصيدة ببيت يبعث فيه السلام ، مابقيت من الحب صبابة ، تفضح عشقه ، وتعلن مايخفى ويكتم ، بالرغم من محاولات سترها واخفائها .

تعقيبات :

أولا : بدأ (ابن زيدون) قصيدته بالدخول فى موضوعه ، فأوضح من أول الأمر عذاب نفسه وقلق روحه ، وجعل يوازن بين حاضره الذابل وماضيه الراحل ، واجتر ذكرياته ، وأعظم من شأن نعمائه ، ثم عاهد على الوفاء ، ودعا بالحياة للعهد ، وللقصر ، ولساكنة القصر ، وكأنه يريدأن ينتشل كلامن (العدمية) التى فرضتها الغربة على نفسه ، ثم قدم لنا صورة ناطقة عن جمال محبوبته ، تجعلنا نتصورها فى أعلى عليين من الجمال وعلى قمة المجتمع النسوى ، ثم عاد الى قلقه ، فناجاها ، واستحث صبره ، وثبت على حبه ، واستزادمنه ريا ، واعتذر من غربته بالجبرية ، وكأنه هنا أراح نفسه ، ودغدغ حسه ، فأسلمنا الى خاتمة هادئة ، إذ يطلب الى محبوبته أن تدوم على العهد لمحب مبق عليها ، ولايصبو الى غـــيرها ، ويتعلق بالصبابة التى بقيت له من هواها ، ولايشاء أن يجاهر بها ، وانما هو يحاول كتمانها . وأن كانت على الرغم منه تبديه وتبديها ، فتهتك سره وتكشف أمره .

ثانيـاً : ومما نلحظه أن (ابن زيدون) أنفق من المعانى المطروقة فى الحب ، ولكنه عبر عنها بأسلوبه هو ، وصورها فى أكثر من صورة تسمو بهذه المعانى ، وتلزمنا ـ عاطفياً ـ أن نتعاطف معه ، ونستحضر تجربته ، وهى تجربة تجاوز نغمة الأمل الى القلق والحيرة واليـأس والحرمان ومن ثم عاش على لوعة وذكـرى وحنين ونجوى .

ومع ذلك يطلب اليها أن تدوم على العهد محافظة ، مادام هومحافظاً عليه . وليس هذا حديث محب ذى ايثار، وانما هو حديث عاشق يبذل فى مقابل ماينال،

وخير من هذا بيته فى القصيدة عينها :

لاتحسبــوا نأيكم عنا يغـيرنا أن طالما غير النــأى المحبينا

وبيتـه :

أولى وفاء ، وان لم تبذلى صـلة فالطيف يقنعنا ، والذكر يكفينا

وبيته :

أما هواك فـلم نعدل بمنهـله شربا ، وإن كان يروينا فيظمينا

فكل من هذه الأبيات ممايتفق معناه مع تطامن المحبين وقناعتهم .

ولعل البيت الأول ـ من هذه الأبيات ـ يتفق مع مجرى تفكيره فى شغر مكانه ، واحتمال وجود عاشق آخر يشغل هذا المكان ، وخاصة اذا عرفنا أن (ابن زيدون) فارق (قرطبة) من بعد ما ألقى به فى السجن ! ولقى العنت من (ابن عبدوس) غريمه فى حب (ولادة) ومن غيره .

ثالثاً : ألفاظ القصيدة حلوة عذبة ، تتلقفها الآذن فى لين ويسر ، وتحدث فى النفس تناغماً أو جرساً يعكس عاطفة الشاعر ، ويعبر عنها خير تعبير ، فالكلمات يتساند أكثرها ، ويستدعى بعضها بعضاً ، ويلجأ الشاعر الى المزاوجة والمقابلة فى الألفاظ والمعانى ، وعليهما يقوم كثير من جمال القصيدة ، كما أنه يكثر من الألفاظ والأوزان التى تدل على المشاركة ؛ فيبين أن العاطفة فى تجاوب مستمر ، وفى رجفة متصلة بين ماض حبيب وحاضر مؤلم . ومما يزيد هذه الرجفة طولا تلك القافية الممدودة ، وهذه النونات الطويلة ، التى تضيف الى جرس الشعر أنيناً موسيقيا .

ياليـــل الصب

الشاعر :

هو الشاعر الضرير أبو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى الحصرى القيروانى ، وهو ابن خالة أبى إسحاق الحصرى صاحب (زهر الآداب) . ذكر (ابن بسام) فى الذخيرة و (ابن بشكوال) فى الصلة . أن أبا الحسن طرأ على الأندلس فى منتصف المائة الخامسة من الهجرة ، فاراً من القيروان بعد خرابها ، فأقرأ الناس القرآن الكريم بقراءاته ، واتصل بملوك الطوائف ، وامتدح (المعتمد بن عباد) ، وتنقل ما بين قرطبة وإشبيلية وسبتة وطنجة ، ووافته المنيـــة فى هذه المدينة سنة ٤٨٨ هـ .

مناسبة القصيدة :

مدح الشاعر ممدوحه أبا عبد الرحمن محمداً فى قصيدة أوفت على مائتى بيت ، وجعل مطلعها مجموعة الأبيات التى اخترناها فى الغزل ، وحظى هذا الغزل بالشهرة من دون سائر القصيدة ، حتى عارضها أكثر من ثلاثين شاعراً ، ونسجوا على منوالها شعراً ، منه كثير فى الغزل ، وعنى الكاتب (محى الدين رضا) بجمع هذه المعارضات فى كتيب خاص . ومن أشهر هذه المعارضات : معارضة نجم الدين القمراوى ، وابن الأبار ، واسماعيل الزيادى ، وناصح الدين الأرجانى ، وشمس الحسينى الدمشقى ، وابن مليك الحموى .

وفى العصر الحديث عارضها اسماعيل صبرى ، وولى الدين يكن ، والأمير نسيب أرسلان ، وأسعد الحلو ، وجميل صدقى الزهاوى ، وعبد الرحمن الرافعى وخير الدين الزركلى ، ومحمود رمزى نظيم ، وقيصر المعلوف ، ورشيد أيوب ،

والشيخ أبو الهدى الصيادى ، وبشارة الخورى ، ومسعود سماحة ، وأرشد راشد، وأحمد عبيد ، وزينب عبد السلام ، وأمينة عباس .

كما عارضها الشاعر أحمد شوقى بقصيدته المشهورة :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده

النص :

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده
رقد السمار ، وأرقه أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذى هيف خوف الواشين يشرده
نصبت عيناى له شركا فى النوم فعز تصيده
وكفى عجباً أنى قنص للسرب . سبانى أغيده
صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده
صاح والخمر جنى فمه سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفاً وكأن نعاساً يغمده
فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده
كلا ، لا ذنب لمن قتلت عيناه ، ولم تقتل يده
يامن جحدت عيناه دمى وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمى فعلام جفونك تجحده
إنى لأعيذك من قتلى وأظنك لا تتعمده
بالله هب المشتاق كرى فلعل خيالك يسعده
ماضرك لو داويت ضني صب ، يدنيك وتبعده

لم يبق هواك له رمقاً فليبك عليه عوده
وغداً يقضى أو بعد غد هل من نظر يتزوده
يا أهل الشوق لنا شرق بالدمع يفيض مورده
يهوى المشتاق لقاءكم وصروف الدهر تبعده
ما أحلى الوصل وأعذبه لولا الأيام تنكده
بالبين وبالهجران . فيا لفؤادى كيف تجلده

المفردات :

ذى هيف : أهيف وهو ضامر البطن والخاصرة . الأغيد : الناعم .
جنى فمه : ثمرته على سبيل التشبيه . ينضو : يسل . رمقا : بقية روح .
العود : جمع عائد وعائدة من العيادة وهى زيادة المريض .

تحليل :

أوضح الشاعر أنه يعيش فى عذاب وقلق ، بسبب مافرضته عليه محبوبته من البين والهجران والصد ، وهى محبوبة جديرة بأن يتعلق بها ، ويرصد جمالها ، ويسبح بفتنها . وإنه ليرجو أن تصله وتحنو عليه ، وإنه ليقنع منها بالقليل يتزود به فى أحلامه ورؤاه ، ويتداوى به من هيامه وضناه ، وإنه ليحرص على هذا القليل حتى آخر أيامه ، ويخاف نكد الزمان أن يحول بينه وبينها ، ويعجب الشاعر كيف يتجلد فؤاده ويقوى على فطام نفسه من هواها وهو مايزال بحاجة إلى التزود منه .

وتبدو الفكرة قريبة والمعانى طيعة ، بيد أن الشاعر عرضها فى تصوير ناعم وإيقاع ناغم ، على ماترى ، فلقد أحس الشاعر ليله طويلا ، بسبب ماعرض له فيه

من ألوان القلق والهموم حتى خيل إليه أنه ليل لا آخر له فى دنياه وأن الساعة موعده .

ولم يكن له شاغل فى هذا الليل الطويل إلا ترديد الأسف لبين المحبوبة وفراقها فهو مؤرق سهران يرعى النجم حتى رق النجم له من طول مارعاه ، ويبيت يرصد النجم فى مسيره من مشرق الحياة إلى مغربها ويبكى كلما أدرك غروب نجمه حتى بكى النجم لبكائه .

والحقيقة أن النجم لم يبد رقة وعطفاً ولابكى لبكاء الشاعر ، ولكنما خلع الشاعر على الكون والطبيعة من داخل نفسه ، وحاول أن يحقق آماله وأمنياته لدى الكون والطبيعة ، فهو يظنهما يعطفان عليه ويدركان حاجته تخيــلا منه . وهذه إحدى مميزات التصوير فى الشعر الأندلسى .

ووصف الشاعر محبوبته ، فعرضها علينا جميلة فاتنة ساحرة ، وتعرض للعلاقة القائمة بينهما فى أكثر من موضع :

(أ) شبهها بالغزال ، والمرأة تشبه بالغزال فى جمال العينين .

(ب) رآها هيفاء — والهيف ضمور البطن والخاصرة — وهـذا من معايير الجمال الحسى عند العرب وغيرهم .

(ج) جعلها غيداء — أى ناعمة — والنعومة صفة متسعة تستهوى الرجل من أى زاوية قدرها .

(د) ارتفع بمحبوبته فوق مستوى الكمال البشرى حين شبهها بصنم الفتنة وهذا خيال انحدر إليه من الثقافة اللاتينية . ولقد يحمد له أنه اكتفى بأن يعلن عن هوى صنمه وعشقه دون عبادته ، خوفا من أن يتهم بإلحاد أو كفر ، وهذا هو مدلول الاحتراس فى قوله (أهواه ولا أتعبده) .

(هـ) رضاب هذه المحبوبة حلو لذيذ ، يسكر من يتمززه ، والعجيب أنها تمنح هذا الرضاب من يسكر به ، وهى - صاحبته - لايبدو عليها أثر السكر منه .

لكنها - من ناحية أخرى - ناعسة الطرف سكرى اللحظ ، فنى لحظها فتور وضعف وانكسار عبر عنه بالسكر ، يفعل مايشاء فى فؤاد محبها فضلا عبر عنه بالعربدة ، ومن معانى العربدة إيذاء النديم فى حال سكره ، ولهذا جعل لحاظها جارحة ، تجرح القلب وتصيب الفؤاد بما تصوبه من سهام الفتنة ، وشبهها بالسيف ينزع من غمده ليمارس وظيفته .

(و) والحبيبة متوردة الخدين ذات حيوية ، ولكن هذه الحيوية قد اكتسبتها — فيما يزعم — من دمه الذى أراقته ثم جحدته .

ولقد أوصلته رحلة العشق — فيما يدعى — إلى المرحلة الأخيرة من نهاية العمر ، فهو يتمنى أن تزوده فى رحلته المقبلة إلى حياة الآخرة بنظرة عطف . ثم ارتد إلى الحياة الدنيا وغلبه الشوق - وكان ينتظر أن تبل صاحبته صداه ، ولكنها لم تفعل - فأغرق نفسه فى دموعه . وكان المفروض أن تغسل هذه الدموع همومه وأحزانه ، وأن تضع حدا لقلق عواطفه ولعذابه ، ولكنها لم تفده من ذلك شيئاً ، فصار كمن شرق بها .

وفى النص عدة مواقف أسهمت فى جلاء المعانى والصور :

منها المقابلة بينه وبين الخليين ، فهم سمروا ورقدوا واستراحوا ، وهو يبيت مؤرقا مهموما باكيا مروعا .

ومنها التسوية بين المحبوبة والغزالة ثم محاولة التفرقة بينهما فى الشرود ، فالغزالة يشردها الخوف من القانصين ، والمحبوبة يفزعها أمر الوشاة .

ومنها بيان موقفه من لداتها وأترابها ، وموقفهن منه . فقد أعجبن به وطمعت كل واحدة فى أن يستجيب لنداء حبها ، ولكنه كان قد اختار وانتهى من اختياره .

وأحياناً يحلو للرجل أن يفتن بذاته ، ويركبه العجب ، ويظن نفسه مطلوباً محبوباً .

أما النظم فانساب فى القصيدة فى رقة وسهولة ويسر ، وتعاونت الألفاظ والجمل مع الوزن القصير الراقص فى تشكيل هذا الانسياب الناغم .

وكأنما كانت أنفاس الشاعر مبهورة ، فهو لا يقدر على إطالتها ، فهو يقطعها بهذا الوزن القصير فى سرعة وملاحقة وتتابع .

غرور الأحلام

الشاعر :

هو المعتمد بن عباد ، أحد ملوك بنى عباد فى إشبيلية زمن الطوائف ، دانت له الدنيا ، وعاش عيش النعيم والترف ، وكان بلاطه كعبة القصاد والوفود ، وملاذ الشعراء والأدباء .

تعرضت مملكته لتهديد « الأذفونش » ملك المسيحيين فى شمالى الأندلس ، فاستعان المعتمد بالأمير المغربى «يوسف بن تاشفين» ، الذى هب لنجدته ، وأوقع بعدوه فى وقعة « الزلاقة » . ثم لم يلبث ابن تاشفين أن تسلط على المعتمد ، وأعلن ضم اشبيلية — وسائر الأندلس من بعد — إلى إمارته فى المغرب ، وأنزل المعتمد عن عرشه ، وساقه وأهله مقرنين فى الأصفاد ، ودفع بهم إلى البحر ، ليسوقهم إلى حيث اعتقلهم فى « أغمات » ، حتى توفى المعتمد سنة ٤٨٨ هـ فى معتقله .

مناسبة الشعر :

أدرك المعتمد أول عيد فى معتقله ، وجاءه بعض أهله المعتقلين معه ، يسلون عليه ويحيونه ، ولمح هو مافيه بناته من الذل والهون ، فسكب دموعه فى هذه القصيدة.

النص :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا　　فجاءك العيد فى « أغمات » مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة　　يغزلن للناس . مايملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة　　أبصارهن ، حسيرات ، مكاسيرا

يطأن فى الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لاخد إلا تشكى الجدب ظاهره وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

المفردات :

الأطمار : الثياب الباليات واحدها طمر. القطمير : القشرة الرقيقة فى النواة. حسيرات : متحسرات . مكاسير : أى حزينات . ممطوراً : أى مغطى بالدموع .

تحليل :

قد يطيق الإنسان آلام نفسه ، ويبتلعها ، مقتنعاً أو غير مقتنع بأنها قدره ، فهو يستسلم لمصيره ، وربما يفلسف هذا الاستسلام ، ويعد مصابه نعمة أو خيراً أو ابتلاء يحتاج إلى الصبر الطويل .

ولكن مأساة المعتمد كانت أكبر من هذا ، فهاهو ذا يشهد بناته معه فى السجن لاحول لهن ولا طول ، ولا قدرة له أن يدفع عنهن ، أو يجلب لهن نفعاً ، جائعات ولا قوت ، عاريات ولا ملبس .

وتصور الملك الشاعر كيف كان يستقبل بناته فيما مضى ؛ وكيف كانت الأميرات يرفلن فى سعة وبلهنية ، تحف بهن المباهج والمسرات ، ويحدوهن البشر والانبساط ، والآن يلقاهن الملك السجين سجينات ، فى جو مغلف بالقتامة والكآبة .

بدأ القصيدة بخطاب نفسه ـ على سبيل التجريد ـ يقابل بين سروره فيما مضى بالأعياد وفجيعته اليوم وهو أسير معتقل فى « أغمات » ، وتتجسد الفجيعة لناظره

وتزداد همومه وغمومه وهو يرى بناته وقد أنزلن - معه - عن عرش السلطان وجاه الصولجان ، ودفعهن الجوع والفقر والحاجة إلى اكتساب القوت من حرفة العامة - حرفة غزل الصوف - وهى حرفة استقرت فى المغرب العربى منذ القديم ؛ فلا تكاد تجد بيتاً يخلو من مغزل أو منسج ينسج الصوف عليه فرشا أو زرابى .

جاء العيد ، وجاءت بناته للتسليم على أبيهن الملك السجين ، فرآهن خاشعات ذليلات متطامنات حسيرات كسيرات حافيات قد علا التراب والطين أقدامهن ، وكأن لم يكن من قبل يرفلن فى الحرير والديباج ، وينتعلن ، ويتخايلن فى الزينة والرياش ، ويجلن فى القصور والمسارح والرياض ، وراع الملك السجين مشهد ناطق بما صرن إليه من المذلة والبؤس ، راعه أن فتياته قد طحنهن الجوع ، فجفت جلودهن من بعد طراوة ، ووضحت آثار الجوع على الخدود جدبا وجفافا وعلى الأنفاس تقطعا وانبهاراً ، وعلى العيون دمعا مدراراً .

وانكفأ الملك السجين على ذاته ، يقابل بين عهد ، كانت - على مايصف الفتح ابن خاقان مؤلف قلائد العقيان - « تخفق عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، وتكف الأمطار من راحته ، وتشرف الأقدار بحلول ساحته ، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيه ، ويقصر النسر أن يقاربه أو يضاهيه » وبين واقعه « وحلقات الكبل قد عضت بساقيه عض الأسود ، والتوت عليه الأساود والسود ، وهو لايطيق اعمال قدم ، ولايريق دمعا إلا ممزوجا بدم » . كان صاحب الكلمة الآمر الناهى المطاع ، فأضحى المأمور المنهى المطيع .

ولم يلبث الملك المقهور أن أدرك زيف الحياة وخداع الدنيا ، فساق الحكمة إلى من كان مثله فى مثل ملكه ، يحذره من غرور الأحلام وكذب الآمال .

ولقد ندرك أن حزن الرجل كبير ، وأنه لم يجد ماينفق فيه وقته إلا أن يستشعر آلامه الدفينة ، وينكأ جراح فؤاده . وكنا نتوقع - وقد جف نبع الحياة أمامه

وأملم بناته ـ أن تقرأ لوحة فياضة بالأسى واللوعة ، وأن يتكافأ تصويره لمأساته مع أغوار تعاسته وشقائه . وهى المأساة التى صورها « ابن اللبانة » شاعره فى مثل قوله ، وقد شاهد المعتمد وأهله مسوقين إلى البحر :

نسيت إلا غداة النهر كونهم فى المنشآت كأموات بألحاد
حط القناع ، فلم تستر مخدرة ومزقت أوجه تمزيق أبراد

ولكن المشاهد فى قصيدة المعتمد لا تجاوز سطح الأحداث إلا قليلا ، ولا يعدو الحديث عنها الأنين والصراخ .

وادى آش

الشاعرة :

حمدونة - وقيل حمدة - بنت زياد ، وهى واحدة من شواعر الأندلس ، تقول الشاعرة فى هذا الوادى :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه ، فحـنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

تحليل :

هذا الوادى واحد من الأودية الكثيرة التى حبت الطبيعة بها بلاد الأندلس . وبلغ من الشهرة حد النسبة اليه ، فإليه ينسب الشاعر عبد البر الوادى آشى والشاعر عبد المنعم الوادى آشى والشاعر ابن نزار الوادى آشى .

وقد أولع الشعراء الأندلسيون بطبيعة بلادهم - وحق لهم ذلك - فهاموا بها ، وأبدعوا تصويرها ، وتعاطفوا معها حتى عدت - فى شعرهم ونثرهم - رفيقة صبواتهم وخلواتهم ومجلى سرورهم وأنسهم ، ومناط احساسهم بالجمال والجلال .

وقد لجأت الشاعرة إلى استخدام الخيال الإحيائى التشخيصى فى صفة هذا الوادى ، فالشاعرة تخلع على الوادى وما فيه بعض صفات الأشخاص من ذوى الإدراك والتمييز ، فالوادى يصون قطانه من الرمضاء اللافحة ، ويحنو عليهم حنو المرضعات على الفطيم ، وينادمهم ، ويصطنع الحرمان والعطاء ، فيصد الشمس ويسمح للنسيم المنعش .

ويعد هذا اللون من الخيال من مزايا الشعر الأندلسى ، ولقد تعلم أن العرب

فى جاهليتهم عرفوا هذا اللون ، وهو ما تجده فى مطالع قصائدهم عن الديار والأطلال والربوع يخاطبونها ويستبكونها ويستوحونها ويسائلونها عن الأحبة ، ولكن الأمر لم يجاوز ذلك ، إلى أن اتصل العرب بثقافات الأمم الأخرى فاتسعت هذه الظاهرة ، وظهرت واضحة فى بعض الشعر العباسى وفى الشعر الأندلسى .

وفى البيت الأول من أبيات الشاعرة جملة (سقاه مضاعف الغيث العميم) ، ويجوز أن تكون نعتا للوادى فهى خبرية لفظا ومعنى أى أنه واد مسقى بالغيث العميم المضاعف ، ويحتمل أن تكون الجملة خبرية لفظا انشائية معنى قصد بها الدعاء لهذا الوادى بالسقيا ، وبهذا تكون منقولة من الثقافة المشرقية ، والدعاء للوادى بالسقيا يعنى إزجاء الأمل له بالبقاء والحياة والطيب ، إذ أن السقيا على حقيقتها غير منظورة فى بلاد الأندلس لأنها بلاد لا تعرف الجدب كما عرفته أرض الجزيرة العربية .

وفى البيت الثانى تشبيه بليغ ـ تشبيه حنو الدوح على قطانه بحنو المرضعات على الفطيم ـ ويزيد من بلاغته وروعته إيقاع حنو المرضعات على الفطيم ، وذلك لأن الفطيم فى مرحلة فطامه تخشى عليه المرضعات من أن يصاب بما يعوق نموه ، ولهذا يكون حدبهن عليه أوضح وأكثر وأسرع ، وتتنافس المرضعات فى هذا الحدب وفى طريقة إيصاله إلى الفطيم .

وفى البيت الثالث جعلت الشاعرة الخمر لاذة ، وهى لم تجعلها لاذة على الأطلاق ، بل جعلتها لاذة للنديم ـ وهو ممن يتعاطونها ـ وهى كذلك عنده ، أما غيره فهو ينكر أن لها لذة .

وفى البيت الأخير بالغت الشاعرة مبالغة قد ينكرها من لم يشهد طبيعة هذه البلاد . أما من شهدها وتعرف إلى جمالها وفتنتها وروعتها فإنه يدرك احتمال هذه المبالغة ويجيزها .

الجنس الناعم

الشاعر :

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى ، ولد فى بطليوس ، ونشأ فى بلنسية ، وكان من أعلام الأدب والعربية، وأشهر كتبه (الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب) شرح فيه كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة . وتوفى البطليوسى سنة ٥٢١هـ.

النص :

غصبوا الصباح فقسموه خدودا ... وتناهبوا قضب الأراك قدودا
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم ... فتقلدوا شهب السماء عقودا
واستودعوا حدق المها أجفانهم ... فسبوا بهن ضراغما وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والظبا ... حتى استعاروا أعينا وخدودا
وتضافروا بضفائر أبدت لنا ... ضوء النهار بليلها معقودا
صاغوا الثغور من الأقاحى بينها ... ماء الحياة لو اغتدى موردودا

المفردات :

قضب الأراك : أغصانه ، والأراك نوع من الشجر مستقيم العود . الياقوت من الجواهر الكريمة التى تتحلى بها النساء . حدق المها : عيونها ، والحدق جمع حدقة وهى للعين أو سوادها ، والمها : جمع مهاة وهى الظبية . ضراغما : أسودا واحدها ضرغام وصرف الجمع لضرورة الشعر . والأسنة : جمع سنان وهو نصل الرمح . الظبا : جمع ظبة وهى حد السيف . الأقاحى : جمع أقحوان وهو نبت طيب الرائحة له نور أبيض ، ويطلق أيضاً على (البابونج) .

تحليل :

هذا لون من الغزل يهتم بالجمال المادى وبالحسن الظاهرى . ولقد نزعم أنه يؤثر القول فى النوع كله ـ نوع النساء أو الجنس الناعم بلغة عصرنا ـ أو لعل الشاعر

كان فى وضع اجتماعى لا يسمح له بالكشف عن هواه الخاص فآثر القول فى النوع تعمية وهروبا من المقالة .

اعتمد الشاعر على التشبيه الحسى ، فشبه الخدود بالصباح فى الوضاءة ، والاشراق ، والقدود بقضبان الأراك فى الاستواء والاعتدال ، والنحور بشهب السماء فى اللمعان والضياء ، والعيون بحدق المها فى الاتساع والجمال . واللحاظ بالأسنة والظبا فى الإصابة والتأثير ، والضفائر بالليل فى السواد ، والوجوه بضوء النهار فى البياض ، والثغور بالأقاحى فى اللون والنظام ، والرضاب بماء الحياة فى العذوبة والطيب واللذة والقيمة . وكلها تشبيهات منقولة عن الثقافة المشرقية التى استوعبها الأندلسيون استيعابا .

وتلاعب الشاعر فى عرض تشبيهاته عن طريق الاستعارة ، بادعاء الغصب والنهب ، والتقلد ، والاستيداع ، والسبى ، والاستعارة ، والتضافر ، والصياغة ؛ وهو لا يقصد غصبا ولا نهبا ... ألخ ، بل يشير إلى أن جمال الحسان قد بلغ الغاية ، فهو يزعم أن ماتراه من خدود ليس خدوداً على الحقيقة ، بل هو صباح غصبنه فقسمنه فيما بينهن وأخذت كل واحدة قسما فوضعته فى خدها ، ولهذا : يشرق خدها ويضىء ويتلألأ ... وهكذا باقى الأوصاف .

ونشير إلى أن جمال النحور فى البيت الثانى جمال خلق وطبيعى ، ولهذا استغنت الحسان به عن التحلى بالعقود . وبلغ جمال النحور هذا مبلغاً عظيما إلى حد التباسه بشهب السماء . وإذا كانت المنطقة العارية هذه تبلغ هذا القدر من الجمال ، فمن باب أولى سائر الجسد الذى تكسوه الثياب فتصونه من اللفح والهجير ، وتبقى على نضارته وجماله .

وفى البيت الثالث جعل الشاعر حدق المها وديعة لدى أجفان الحسان ، ولما كان العشاق وقعوا أسرى لحاظهن جعلهم الشاعر ضراغم وأسودا على التشبيه . ونلحظ ـ فى الحالين ـ استسلام الأقوى للأضعف لميزة فى هذا الأضعف ، أولأن سلاح هذا الأضعف أقوى من أن يقاوم .

وفى هذا البيت الثالث تكرار عن طريق المترادف ، فالضراغم هى الأسود ولم يكن لدى الشاعر داع لهذا التكرار إلا تحقيق الوزن أو القافية .

نهج الهدى

القصيدة :

إلهى ، إنى شاكر لك حامد ... وإنى لساع فى رضاك وجاهد
وإنك - مهما زلت النعل بالفتى - ... على العائد التواب بالعفو عائد
تباعدت مجداً ، وادنيت تعطفا ... وحلماً ، فأنت المدنى المتباعد
ومالى على شىء سواك معول ... إذا دهمتنى المعضلات الشدائد
أغيرك أدعو لى إلها وخالقاً ... وقد أوضح البرهان أنك واحد
وقدما دعا قوم سواك ، فلم يقم ... على ذاك برهان ، ولالاح شاهد
وبالفلك الدوار قد ضل معشر ... وللنيرات السبع داع وساجد
وللعقل عباد ، وللنفس شيعة ... وكلهم عن منهج الحق حائد
وكيف يضل القصد ذو العلم والنهى ... ونهج الهدى من كان نحوك قاصد
وهل فى الذى طاعوا له وتعبدوا ... لأمرك عاص أو لحقك جاحد
وهل يوجد المعلول من غير علة ... إذا صح فكر أو رأى الرشد راشد
وهل غبت عن شىء فينكر منكر ... وجودك ، أم لم تبد منك الشواهد
وفى كل معبود سواك دلائل ... من الصنع ، تبدى أنه لك عابد
وكل وجود عن وجودك كائن ... فواحد أصناف الورى لك واحد
سرت منك فيها وحدة ، لو منعتها ... لأصبحت الأشياء وهى بوائد
وكم لك فى خلق الورى من دلائل ... يراها الفتى فى نفسه ويشاهد
كفى مكذبا للجاحدين نفوسهم ... تخاصمهم - إن أنكروا - وتعاند

المفردات :

شاكر حامد : يقول « ابن قتيبة » ـ فى أدب الكاتب ـ الشكر الثناء على الرجل بمعروف أولاكه ، والحمد الثناء عليه بما فيه من الحسن تقول : حمدت الرجل إذا أثنيت عليه بكرم أو حسب أو شجاعة وأشباه ذلك . وقد يوضع الحمد موضع الشكر فيقال : حمدته على معروفه عندى وشكرت له ، ولا يوضع الشكر موضع الحمد فلا يجوز : شكرت له على شجاعته . زلت النعل : زلقت ويترتب عليه سقوط صاحبها ، والمراد هنا سقوطه فى الخطيئة والإثم . ادنيت : اقتربت ـ وادنى افتعل من دنا . معول : معتمد واتكال . مكذبا : اسم فاعل من أكذبه ، أى كنى مبينا لكذب الجاحدين .

تحليل :

فى النص الذى سلف بدا البطليوسى عاشقا للجنس الناعم ، يتلمس مواطن الفتنة فى الحسناوات ، ويلتمس فى الطبيعة أشباه هذه المفاتن ، ويفتقد ماء الحياة ، ويعان راية التسليم والخضوع .

وفى النص الذى أمامنا تأخذه الجلالة ، يسبح بحمد الله ، ويقر له بالتوحيد ، ويسعى فى مرضاته ، ويطمئن إلى عفوه وعطفه وحلمه ، ويعتمد عليه د ن غيره ، فلقد أوضح البرهان أنه ـ سبحانه ـ الخالق الواحد القدير ، وذهبت بدداً دعاوى الإلحاد والزيغ والانحراف عن نهج الحق ، ومن العجب عنده أن يضل ذوو العلم وأرباب النهى ، وقد كان أولى بالعلم أن يهدى العلماء إلى موطن الحق ، وبعقل العقلاء أن يبصرهم سواء السبيل .

ثم جعل يتساءل ـ منكراً ـ أن تخرج معبوداتهم على طاعة الله ، أو تجحد ربوبيته ، وهى ـ أى هذه المعبودات ـ مخلوقة له ومعلولة . وكيف يجوز أن ينكر المنكرون وجود الله وهو حاضر شاهد ، آثار قدرته لائحة ، ودلائل ربوبيته واضحة .

وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحد

وتدور الفكرة فى هذا كله حول الإقرار لله - سبحانه وتعالى - بالوحدانية ، والرد على من ذهب غير هذا المذهب ؛ ممن ضلوا السبيل ، ودعوا لهم إلهاً غير الله . وقد استغل الشاعر منطق الجدل ، وناقش المسألة بكثير من التجرد ، واستند فى قليل إلى المنقول ، كإشارته فى البيت الثانى إلى توبة الخاطئين ، من قوله - تعالى - : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » (المائدة ٣٩) ، وقوله : « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » (الأعراف ١٥٣) ، وقوله : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (الشورى ٢٥) ونحوها . وكإشارته فى البيت الأخير إلى شهادة الجوارح على أصحابها يوم القيامة ، قال تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (النــور ٢٤) ، وقال : « اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (يس ٦٥) .

وهذا الشعر الفكرى يستند إلى المنطق على ما ذكرنا ، ولهذا أخذ من مصطلحات (أهل الكلام) كثيراً ، كالبرهان ، والشاهد ، والعلة ، والمعلول ، والدليل ، والكائن ، والوجود ، والموجود ، والوحدة ، والواحد ، والجحد ، والإنكار ، والعناد .

وهذا الشعر الفكرى يكون نصيبه من العاطفة ضئيلا ، واعتماده على الخيال قليلا ، وقد رأينا الشاعر لا يستغل عاطفته الدينية إلا مرتين لدى حديثه عن التوبة وشهادة الجوارح . أما الخيال فلم تتوفر الحاجة إليه ، وما جاء منه من الكناية ، وهى أقرب إلى الحقيقة إن لم تكن منها ، مثل العبارة عن الخطيئة بزلل النعل فى البيت الثانى ، والعبارة عن عزة الله وجبروته وعظمته بتباعده مجداً وعن قبوله توبة التائبين بتدانيه تعطفا وحلما فى البيت الثالث ، والعبارة عن التعرض للصعاب بمداهمة المعضلات الشدائد فى البيت الرابع .

فطام النفوس عن الكئوس

الشاعر :

هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس . يتصل نسبه بالأزد من عرب اليمانية .

ولد حوالى سنة ٤٤٧ ﻫ فى مدينة (سرقوسة) بجزيرة صقلية . وهذه الجزيرة كان العرب قد فتحوها سنة ٢١٩ ﻫ وحكمها الأغالبة حكام إفريقية ، وبقى فيها العرب حتى سنة ٤٦٤ ﻫ حين غزاها النورمنديون .

وشهد ابن حمديس نهاية العرب والإسلام فى صقلية ، واضطر أن يفارقها ، فذهب إلى الأندلس ، واتصل بالملك المعتمد بن عباد ـ الذى عرفت قبل أنه كان مقصد الشعراء والأدباء ـ فلزمه ، وطارحه الشعر ، ومدحه ، فلما نكب المعتمد نكبته اتجه ابن حمديس إلى (المهدية) ، واتصل بآل باديس حكام إفريقية فى هذا الوقت ، وانقطع للامير تميم بن المعز ، وابنه يحيى ، وحفيده على ،وحظى منهم جميعاً بالرضا والنوال . وقبيل وفاته فى سنة ٥٢٧ ﻫ رحل إلى جزيرة (ميورقة) ، وبقى فيها بقية عمره .

ولابن حمديس ديوان شعر زهاء ستة آلاف بيت ، نصفه فى المديح ، ونصفه فى الوصف والغزل والشراب والرثاء والفخر والشكوى .

مناسبة القصيدة

لا نذكر للقصيدة مناسبة خاصة ، والمؤكد أن الشاعر أنشأها وهو فى بلاد المغرب ، أى بعدأن فارق منشأه فى صقلية ، واضطر أن يفارقها ـ على ماعرفت ـ فراراً من النصارى الذين حاربوا قومه ، واستولوا على الجزيرة بعد أن دانت للعرب قرنين ونصف القرن من الزمان .

النص :

١ — تدرعت صبرى جنة للنوائب ... فإن لم تسالم يازمان فحارب
٢ — عجمت حصاة لا تلين لغامز ... ورضت شموسا لا يذل لراكب
٣ — كأنك لم تقنع لنفس بغربة ... إذا لم أنقب فى بلاد المغارب
٤ — فطمت بها عن كل كأس ولذة ... وأنفقت كنز العمر فى غير واجب
٥ — يبيت رئاس العضب فى ثنى ساعدى ... معاوضة من جيد غيداء كاعب
٦ — وما ضاجع الهندى إلا مثلما ... مضاربه يوم الوغى فى الضرائب
٧ — فكنت وقدى فى الصبا مثل قده ... عهدت إليه أن منه مكاسبى
٨ — فإن تك لى فى المشرفى مآرب ... فكم فى عصا موسى له من مآرب
٩ — أتحسبنى أنسى ومازلت ذاكرا ... خيانة دهرى أو خيانة صاحبى
١٠ — تغذى بأخلاقى صغيراً ولم تكن ... ضرائبه إلا خلاف ضرائبى
١١ — ويارب نبت تعتريه مرارة ... وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
١٢ — علمت بتجريبى أموراً جهلتها ... وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
١٣ — ومن ظن أفواه الخضارم عذبة ... قضى بخلاف الظن عند المشارب

المفردات :

تدرعت صبرى : اتخذته كالدرع ، وأصل التدرع أن يلبس الرجل درع الحديد . جنة : أى وقاية وسترا ، والجنة (بالضم) كل ما وقى وستر . النوائب : النوازل والمصايب . عجمت : بمعنى اختبرت وجربت ، وأصل العجم العض واللوك للاكل أو للخبرة والحصاة (هنا) العقل والرأى . رضت شموسا : ذللته ، ويعنى بالشموس نفسه تشبيها لها بالجواد الشموس الذى يمنع ظهره فلا يمكن منه راكبه . رئاس العضب : مقبضه والعضب هو السيف ، ومن أسمائه الهندى والمشرفى ، وكلاهما فى القصيدة . الغيداء : الناعمة اللينة ، الكاعب : الناهد الثدى . مثلما (بصيغة المفعول) مكسرا — وزنا ومعنى — وثلم الشىء وتثليمه

تكسير حرفه . المضارب : جمع مضرب ومضربة حــد السيف وجعل له مضارب لأنه يقطع من كل مكان . الضرائب : جمع ضريبة وهى فى البيت السادس بمعنى المضروبين بالسيف ، وفى البيت العاشر بمعنى الطبائع . القد : القامة . الخضارم (بالضم) : البئر الكثيرة الماء والبحر الواسع .

تحليل :

١ ــ بدأ الشاعر القصيدة فاخرا ، يقول : إنى تحصنت بالصبر ، واتخذته لى كالدرع ، أتقى به نوازل الزمان وكوارث الدهر . ومقتضى هذا أنه يسالم الزمان ويهادنه . ثم التفت إلى الزمان يتحداه قائلا له : هأنذا مستعد لحربك ، فإن لم تجنح إلى مسالمتى فجرب أن تحاربنى فلقد وطنت نفسى على قهرك والنصر عليك .

٢ ــ واستمر الشاعر يخاطب الزمان وكأنه يذكره ناسيا : لقد اختبرتنى من قبل وجربتنى ، فوجدت منى عقلا ورأيا صائبا صلبا لا يميله الهوى ولا يلين لغامز ، وحاولت أن تذللنى وتروضنى لرغائبك فما وجدت منى إلا الشماس والامتناع والرفض .

٣ ــ ويقول للزمان أيضاً : أما كفاك ما أنا فيه من غربة النفس ، وكأنك لا تقنع إلا بتشتيت شملى ومناوشتى ، مع أن الغربة كانت سببا فى حرمانى من أوطارى .

٤ ــ ولتعلم أيها الزمان أنك تصادم رجلا صلبا فطم نفسه عن الملذات ، وقضى عليه أن ينفق عمره فى غير ما يحب .

٥ ــ وتحدث عن نفسه : لقد عشت لا يفارقنى سيفى ، مستعداً دائما للنضال ، لم أك كمن ينفقون العمر فى اللهو ومعابثة الكواعب الحسان .

٦ ــ ولقد شهدت الحروب وعالجتها ، وسيفى هذا أعملته فى سيوف العدو وتمزيق أوصالهم ، حتى بات ــ لكثرة ما نال منهم ومن سيوفهم ــ أشبه بالضجيع لهم ولها .

٧ ـ وإنى منذ الصبا ـ حين لم تجاوز قامتى طول السيف ـ تمرست بالجراءة ، حتى لقد عهدت إلى سيفى أن تكون مكاسبى ومغانمى من طريقه لا من طريق آخر غيره .

٨ ـ وما أعظم أن تأتينى من طريقه مآربى وحاجاتى ، فإنه لى كعصا موسى لموسى ، وقد قال لربه حين كلمه وسأله عما بيمينه : « هى عصاى ، أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى » .

٩ ـ وجره حديث الفخر إلى الشكوى ، فتحدث عن خيانة الدهر والصديق ، وكأنه يتلمس أسباب إصراره على امتشاق الحسام والتأهب للنضال ـ قال : مازلت أذكر غيرناس خيانة دهرى الذى نكبنى فى وطنى وأهلى واضطرنى إلى مفارقتهما ، أو خيانة صاحبى الذى تنكرنى فى وقت المحنة .

١٠ ـ وقد كنت غذوت دهرى ـ أو صاحبى ـ فى الصغر على ضرائبى وطبائعى ، وكان المأمول أن يفيدا منه ولكنهما أخلفا الظن فارتدا إلى طباعهما ، وهى مغايرة لطباعى ، فضاعت ثمرة تربيتى لهما ، ولم تؤت أكلها إلا الخلاف والانتكاس .

١١ ـ وليس هذا بجديد فى الخيانة ، فإن من النبات نباتا مر المذاق ، لا يجديه ولا يغير من مرارته أن يسقى بالماء العذب الفرات .

١٢ ـ وبعد هذه السياحة التى جابه فيها الدهر وخر عليه بصلابته ، ثم شكا مالقى من الخيانة وسوء المنقلب ـ لم ير مناصا من الاعتراف بأنه مر بتجربة أفادته أمورا كان يجهلها ، وقد تجهل الأشياء قبل التجارب .

١٣ ـ وعقيب استنتاجه هذا ساق الدليل على صحته ـ فى إطار من يلتمس العبرة ومن يوطن نفسه على عدم الوقوع فى الخطأ مرة أخرى ـ أن قد يظن وراد البئر الكثيرة الماء ـ أو البحر ـ أنهم سيروون من الماء العذب فإذاهم يقعون على ماء مر كريه أو على ماء ملح أجاج ، فتتخلف ظنونهم .

وشاعرنا ابن حمديس شاعر وصاف فى كل شعره ، والتصوير يمسك بأقطار قصيدته ، لا يكاد يخلو منه بيت .

ومن وادى التشبيه : تشبيه الصبر بالدرع كلاهما يقى صاحبه ، وتشبيه الحصاة ــ وهى الرأى والعقل ــ بالعود الصلب الذى لا يلين ، وتشبيه الشاعر نفسه بالفرس الشموس ، وتشبيه حرمانه من الكأس واللذة بفطام الطفل عن ثدى أمه المحبب إليه ، وتشبيه عمره بالكنز الذى ينفق منه عن سعة ، وتشبيه قامته فى عهد الصبوة بالسيف فى الطول ، وتشبيه السيف تشبيها ضمنيا بعصا موسى التى كانت له فيها مآرب ، وتشبيه الدهر ــ أو الصديق ــ الخائن لم يفد من صحبة الأخيار بالنبت المر لم تغير من مرارته سقياه بالماء العذب ، وهو تشبيه ضمنى أيضاً .

والبيت : ويارب نبت تعتريه مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحائب

والبيت : ومن ظن أفواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب

كلاهما مثل على إخلاف الظن ، وتمثيل لحال من ترجى الصلاح من غير أهله ، وتطلب من الشىء ما ليس فى طبعه .

ومن وادى التجسيم والتشخيص : مخاطبته الزمان مسالما ومحاربا ، ومختبراً ومجربا ، وقانعا وغير قانع ، وعهده إلى سيفه ، واتهام الدهر بالخيانة ، وفرض الغذاء والفطام عليه .

ومن وادى المقابلة : مسالمة الزمان وحربه فى البيت الأول ، والمرارة والعذوبة ، والعلم والجهل ، والظن وخلاف الظن ، فى الأبيات الثلاثة الأخيرة .

ونلمح أطرافا من البديع ، كالجناس فى الغربة والمغارب ، والمضارب والضرائب ، والضرائب بمعنى المضروبين وبمعنى الطبائع . وكمراعاة النظير فى الكأس واللذة ، وكتوازن الكلمات فى شطرى البيت الثانى .

الروض عقيب المطر

الكاتب :

هو أبو اسحاق إبراهيم بن أبى الفتح بن عبد الله بن خفاجة . ولد فى جزيرة (شقر) من أعمال بلنسية شرقى الأندلس سنة ٤٥٠ هـ . ونشأ فى شىء من الترف والنعمة ، ، فانصرف عن المديح أول أمره وشغفت بالطبيعة ، وجعلها مرتعا للهوه وصبوبته ومنادمة أقرانه ، وأودع متعته هذه معظم شعره ، لجاء ديوانا الطبيعة الأندلسية كما أحسها وتخيل مرائيها .

ولكن شعره مع ذلك لم يخل من أثر الثقافة المشرقية باعترافه هو فى مقدمة ديوانه أنه اقتفى طريقة الشريف الرضى ومهيار الديلمى وعبد المحسن الصورى ، فيما نسج من الشعر. ويساعدنا فى قدر هذه الثقافة قدرها الصحيح ما نجد فى شعره من العبارات التقليدية البدوية كالظعن والإقامة وأنفاس الخزامى ونسيم الصبا ، وايثاره الجمال البدوى على الجمال الحضرى الذى تصنعه التطرية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى اتسع ابن خفاجة فى استخدام المحسنات البديعية وتفنن فيها بعامة وفى الجناس والسجع بخاصة .

وفى أخريات أيامه مال إلى مدح المرابطين ، ثم تنسك آخر عمره حتى توفى سنة ٥٣٣ هـ عن أكثر من ٨٠ عاما . وابن خفاجة شاعر ناثر . وهذه قطعة من نثره يصف فيها الروض عقيب المطر :

النص :

« ... ولما أكب الغمام إكبابا ، لم أجد منه إغبابا ، واتصل المطر اتصالا ، لم ألف منه انفصالا ، أذن الله للصحو أن يطلع صفحته ، وينشر صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوى السجل الكتاب ، وطفقت السماء تخلع جلبابها ، والشمس تميط نقابها ، وطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت ، وقد تحلت . فذهبت

فى لمـة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضا ، ونطوى للتفرج أرضاً ، فلا نندفع إلا إلى غدير ، نمير ، قد استدارت منه فى كل قرارة ماء ، سحابة غماء، وانساب، فى تلعته حباب ، فترددنا بتلك الأباطح تتهادى تهادى أغصانها ، وتتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم ، أثناء ذلك المنظر الوسيم ، ترسل مشى ، على بساط وشى ، فإذا مر بغدير نسجه درعا ، وأحكمه صنعا ، وإن عثر بجدول شطب منه نصلا، وأخلصه صقلا ، فلا ترى إلا بطاحا ، مملوءة سلاحا ، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول ، فاحتللنا قبة خضراء ، ممدودة أشطان الأغصان ، سندسية رواق الأوراق ، ومازلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ، ونشتمل عليه برداء نسيم عليل ، ونجيل النظر فى نهر صقيل ، صافى لجين المـاء ، كأنه مجرة سماء ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنه من ثغور الأحباب ...) .

المفـردات :

أكب الغمام : سقط ، ويعنى سقوط المطـــر . إغبابا : أى تقطعا وأصل الإغباب الزيارة وقتا بعد وقت . لمـة من الإخوان : جماعة منهم وأصل اللمـة الصحبة فى السفر . ركضاً : جريا سريعا . نمير : صاف . سحابة غر : لافرجة فيها . تلعته : التلعة ما ارتفع من الأرض . حباب : بالفتح الفقاقيع تعلو وجه الماء وبالضم الحية . الأباطح : جمع أبطح وهو مسيل للماء فيه حصى دقيق . تتهادى : أى تتمايل . أقحوانها : الأقحوان نبت طيب الرائحة له نور أبيض . ترسل مشى : أى مشى فيه مهل وهوادة . بساط وشى : أى بساط موشى بالنقوش . نسجه درعا : أى أن النسيم يجعد صفحة المـاء فيجعلها أشبه بحلق الدرع المنسوج . شطب منه نصلا : أصل الشطب أن يعمل الصانع فى السيف حزوزاً غائرة على طوله ، والمراد تشبيه الجدول بالسيف المشطوب . أشطان الأغصان :أى الأغصان الطويلة المشبهة للأشطان وهى الحبال . رواق الأوراق : مقدمها وأصل الرواق مقدم البيت والدار . لجين المـاء : اللجين الفضة ، يشبه الماء بها من التشبيه البليغ . مجرة السماء: منطقة فى السماء ذات نجوم كثر لا يميزها البصر فيراها بقعة بيضاء . جوهر الحباب : الجوهر الدر ،والحباب الفقاقيع ، يشبهها بالدر والجوهر .

هذا المنظر :

ها أنت ذا تتعرف بنفسك إلى هذا الروض الجميل ، من خلال هذا العرض الجميل ، يصفه لك ابن خفاجة بأسلوبه الخاص ، ويتناول الوصف مظهر الجمال ومرآه ، كما يتناول جانباً من أثره فى نفوس المرتاضين ، وحركتهم للاستمتاع به والرياضة فيه . وقد شمل الوصف : الأرض وزينتها ، والسماء وصفاءها ، والمياه ورقتها ، والنسمات وحركتها ، وكاد ينحصر اهتمامه بما أعقب المطر من اعتدال الطبيعة ، وزخرف الأرض ، وصلاحها للمتعة والتفرج والانبساط ، وهنا سبح خياله فيما يشهده سبحاً ، واتسعت أمامه الصور والمرائى ، فتخيل النسيم صانع أسلحة فوق سطح الماء ، وتخيل الأسلحة فى معركة حربية استسلامية ، وتخيل الأرض الظليلة رواقا ممدوداً وسرادقا منصوبا ، وتخيل الماء لجينا ، والنهر فى الأرض مجرة سماء ... الخ .

ومن البين الواضح أن هـــذه الأوصاف مشحونة بالتشابيه والاستعارات ، وأن جل هذه التشابيه والاستعارات من النوع التقريرى المأثور ، وهذا من أثر الثقافة المشرقية التى تمثلها ابن خفاجة فى شعره ونثره .

ومن البين أيضاً أن الزينة اللفظية طاوعت قلم ابن خفاجة ، فالجناس كثير ، والطباق ومراعاة النظير كلاهما موجود ، والسجع فى كل جملة مجلوب ، والكلمات المسجوعة مـــترددة مابين التوازن ومابين الطول والقصر والقصر والطول . وفى القطعة فى قوله : (فقشعت الريح السحاب كما طوى السجل الكتاب) تضمين الآية الكريمة (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) - الأنبياء ١٠٤ - واستغلال ذات الجملة التشبيهية .

* * *

وهذه الأوصاف والتشابيه التى خلعها ابن خفاجة على الطبيعة تلح عليه إلحاحاً فلا ينفك منها فى شعره ونثره . وهذا مثال من شعره فى صفة النهر مصـــداق لما نقوله :

لله نهـــر سال فى بطحاء | أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطف مثـل السوار كأنه | ـ والزهر يكنفه ـ مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا | من فضـة فى بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها | هدب تحف بمقــلة زرقاء
ولطالما عاطيت فيـه مدامة | صفراء تخضب أيدى الندماء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى | ذهب الأصيل على لجين الماء
والمـاء أسرع جريه متحدراً | متلويا كالحيـــة الرقطاء

فالنهر هنا وهناك مجر سماء ، والنهر هنا قد رق وهناك نهر صقيل ، والنهر هنا يجرى فى بردة خضراء وهناك لدى قبة خضراء ، وهنا تحف به الغصون وهناك الأغصان ممدودة كالأشطان ، وهنا الريح تعبث بالغصون وهناك للنسيم ترسل مشى ، والماء هنا أسرع فى جريه متحدراً متلوياً كالحية الرقطاء وهناك انساب كالحباب .
فلا تـكاد ـ عند الموازنة ـ تعطى أيا من شعره ونثره فضلا على الآخر .

نبأ من الأندلس

الشاعر :

هو أبو البقاء صالح بن شريف الرندى ، من شعراء القرن السابع للهجرة .

مناسبة القصيدة :

عاصر الشاعر أحداث الأندلس ، التى سقطت فيها المدن الأندلسية واحدة بعد أخرى فى أيدى المسيحيين . وحين استولوا فى سنة ٦٤٥ ﻫ على (اشبيلية) أنشأ الشاعر هذه القصيدة ، وفيها يذكرها باسم (حمص) ، ويبكيها ، ويبكى معها مدنا أخرى تساقطت من قريب فى أيدى العدو ، مثل : بلنسية ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيان ، وقرطبة .

وروى الناس القصيدة ، وتداولوها فيما بينهم ، لأنها تمس عاطفتهم الدينية ، وكانوا إذا أصابهم مكروه تمثلوا بها ، بل لقد زادوها أبياتا ، كما فعل السيد يحيى القرطبى ، زاد فيها عشرين بيتا ، وقدم وأخر فى بعض أبياتها ، وغير وبدل فى بعض ألفاظها [1] . ودليلنا على الزيادة حديثه فيها عن سقوط (غرناطة) وغيرها من المدن التى ثبت تاريخياً أن سقوطها إنما حدث فى فترة لاحقة . قال عن غرناطة :

وأين غرناطة دار الجهاد ، وكم   أسد بها وهم فى الحرب عقبان
وأين حمراؤها العليا وزخرفها   كأنها من جنان الخلد عدنان

وغرناطة قد بقيت فى يد بنى الأحمر ملوكها ، حتى سقطت فى أيدى المسيحيين سنة ٨٩٨ ﻫ بعد قرنين ونصف القرن من سقوط إشبيلية .

---

(١) انظر كتاب (ريحانة الألبا) للشهاب الخفاجى ﺣ ١ ص ٣٧٠ تحقيق عبد الفتاح الحلو ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى .

النص :

١ـ لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها : دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان (١)
وينتضى كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغمد غمدان (٢)
أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده (شداد) فى (إرم) ... وأين ما ساسه فى الفرس «ساسان»
وأين ما حازه (قارون) من ذهب ... وأين (عاد) و (شداد) و (قحطان)
أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على (دارا) وقاتله ... وأم (كسرى) فما آواه (إيوان)
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً ولم يملك الدنيا (سليمان)
فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له (أحد) وانهد (ثهلان) (٣)
أصابها العين فى الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل (بلنسية) ما شأن (مرسية) ... وأين (شاطبة) أم أين (جيان)

---

(١) المشرفيات : السيوف نسبة إلى مشارف الشام والخرصان (بالضم) .. : الرماح واحدها خرص مثلثا ، أو الخرصان (بالكسر) الرماح باسم قرية بالبحرين مشهورة ببيع الرماح ، ونبوها كلالها وتقصيرها .

(٢) غمدان : قصر مشهور باليمن أيام سيف بن ذى يزن .

(٣) أحد وثهلان : جبلان بشبه الجزيرة العربية .

وأين (قرطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين (حمص) وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن[1]
قواعد كن أركان البلاد . فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ، ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

ياغافلا وله فى الدهر موعظة ... إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحاً يلهيه موطنه ، ... أبعد (حمص) تغر المرء أوطان[1]
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ، ... وما لها مع طول الدهر نسيان
ياراكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها فى ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر فى دعة ، ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل (أندلس) ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث صناديد الرجال وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم ـ ياعباد الله ـ إخوان
ألا نفوس أبيات لهـــا همم ، ... أما على الخير أنصار وأعوان !
يامن لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان

---

(١) حمص اسم لاشبيلية .

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر، واستهوتك أحزان
يارب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقـــوت ومرجان
يقودها العلج عند السبي مكرهة والعين باكية والقلب حيران[1]
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

تحليل :

نفث الشاعر في هذه القصيدة أساه وحسرته وألمه عندما وقع معظم الأندلس في أيدي النصارى ، وجعلوا يفتنون أهلها المسلمين عن دينهم ويذيقونهم ذل العبودية ويضطرونهم إلى هجرتها والرحيل عنها .

وتضمنت القصيدة ـ على طولها ـ عدة أفكار أهمها :

١ ـ التسليم بأن كل شيء في الوجود لا يدوم ولا يبقى ، فإن الدهر كفيل بفناء كل شيء وهلاكه ، فهو لا ينفلت منه ولو كان في نظر الناس قويا لا يغلب ، ولو تحصن من الدهر واستند إلى أقوى القوى الدنيوية .

٢ ـ ضرب الشاعر عدة أمثلة من التاريخ ومن مختلف الأمم والشعوب للعظة والاعتبار ، وأذكر نفسه أوأذكر غيره بفناء سيف بن ذي يزن الملك اليمني المشهور لم يمنعه قصره (غمدان) ، وهلاك شداد ملك (إرم ذات العماد) وساسان إمبراطور الفرس . وقارون لم يفده ماله وما كنز .. وغير أولئك دار عليهم الزمان وخلى بينهم وبين ما كانوا يتمتعون به من الثروة والجاه والعز والسلطان .

---

(١) العلج : الرجل من كفار العجم .

٣ ـ تحدث عن ضياع الإسلام من هذه الديار وتبدل الحال فيها وتحولها إلى النصرانية التى أسرعت إلى تغيير المعالم وتشويه الحضارة التى أرسى المسلمون أساسها .

٤ ـ توجه بالخطاب إلى المسلمين خارج هذه الديار ، وهو يشير إلى غفلتهم عن الخطر الماحق والشر المستطير الذى ألم بالإسلام والمسلمين فى الأندلس ، وألح إلى ما تقتضيه الأخوة من واجب الإغاثة والإعانة والنجدة .

٥ ـ وصف الذل الذى أصاب المسلمين ، وتحدث عن العبودية التى دفعوا إليها ، وتناول ما أصابهم من هوان الأسر ، ومن التفرقة بين الطفل وأمه ، فتمزقت الأسر ، وتشتت الشمل ، وضاع الأمل فى الاجتماع واستعادة المجد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وطغت على الشاعر عاطفة الألم والحزن يغلفها بالبكاء لضياع الإسلام وضياع البلاد نفسها ، ولكن نغمة الأسى لضياع الإسلام كانت أعلى فى القصيدة من حديثه عن ضياع البلاد . وليس من شك فى أن العاطفة نحو الأفكار والمبادىء والمعتقدات أقوى من العاطفة نحو الماديات والأمور المجسدة ، واقرأ الأبيات (تبكى الحنيفية البيضاء . . .) لتدرك مقدار تلك العاطفة .

وفى بيته :

يا من لذلة قوم بعد عزهم   أحال حالهم جور وطغيان

إشارة صريحة إلى أن ما أصاب الأندلس وأهلها من التعاسة والهوان سببه الجور والطغيان . ويمكن أن يقال : إنه جور النصارى وطغيانهم على مقدرات هذه البلاد ، كما يقال : إنه جور المسلمين وطغيانهم على مقدراتهم هم لأنهم استناموا إلى التفكك ، وانخذلوا ، وشغلوا بالملذات والملاهى ، وغفلوا عن مجاهدة عدوهم ، فقد جاروا إذن وطغوا على أنفسهم بأن بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ،

ولم يبقوا على عقيدتهم التى فى أفئدتهم إذ لم يصونوها فمكنوا لعدوهم من أنفسهم ورقابهم .

والشاعر فى حديثه إلى المسلمين خارج البلاد ينحو نحو الأمل فى أن يهبوا للواجب المقدس لإنقاذ الإسلام المنهار فى هذه الديار ، وفى هذا الحديث أيضاً كثير من اللوم والتقريع لتقاعسهم وغفلتهم عن الخطر الكبير الذى قد يصيب الإسلام كله . وفى إشارته إلى أن هؤلاء يركبون عتاق الخيل ويحملون السيوف الهندية المرهفة مغزى ، فكأنه يقول : الأولى أن توجهوا هذه الخيل وهذه السيوف إلى حرب العدو بدلا من اتخاذها للسباق والوجاهة .

وفى بيته :

كم يستغيث صناديد الرجال وهم　　　قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

إخبار عن كثرة الاستغاثة وأنها صادرة عن الأبطال الذين هم بطبيعتهم أبعد ما يكونون عن طلب العون . ولقد تمثل القتل والأسر لأعينهم أمراً واقعاً فهم من خوف الوقوع فيه يستغيثون . وإذا كان الأمر كذلك فما بالنا بالضعاف الذين لا حول لهم ولا طول ، ولا يملكون عن أنفسهم دفعا .

وبلغت المرارة غايتها بنهاية القصيدة ، حين جعل الشاعر الفجيعة تذيب القلوب كمدا والنفوس أسى وحسرة ، ولكن القلوب ـ قلوب المسلمين الذين لم يتحركوا للجندة ـ تخلو ـ والعياذ بالله ـ من الإسلام والإيمان .

والشاعر موزع العاطفة يعيش قلقا ، فهو لا يستقر على أمر ، فهو فى أول القصيدة يتسلى عن مصيبة الأندلس بأحداث التاريخ ، ثم يقول : (وما لما حل بالإسلام سلوان) ، (دهى الجزيرة أمر لا عزاء له) ، (تلك المصيبة أنست ما تقدمها) . وربما كان الشاعر ينشد التسليم أول الأمر فلما أدرك أن المحنة محنة فى الدين لم يستطع أن يستسيغ السلوى والعزاء ، وربما جاز لنا أن نقول : إنه أنشأ القصيدة على عدة مراحل .

وأسلوب القصيدة فى جملته سهل واضح لا تكلف فيه ولا تقصير ، ويكاد يكون فطرياً . وما فيها من الخيال والتصوير اعتمد على التشبيه والاستعارة فى قالب تقريرى ، ولم تخل أبياتها من البديع بالرغم من أن الحزن يصرف المرء عن التفكير فى التحسين والتزويق ، مما يدل على أن تعاطى البديع قد صار جزءاً من صناعة الأدب عند الأندلسيين .

بعد التحية والسلام

الشاعر :

هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة المعروف بابن العديم .

تلقى العلم عن أبيه وأشياخ وقته ، في دمشق وحلب والقدس وفي الحجاز والعراق . ونبه في الحديث والفتوى ، والتاريخ ، والترسل ، والخط .

وله عدة كتب : منها بغية الطالب في تاريخ حلب ، ومختصره زبدة الحلب ، وكتاب الوسيلة إلى الحبيب ، وكتاب رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري ، وكتاب الدراري في ذكر الذراري .

وكواحد من أفراد أسرته تولى القضاء في بلاد الشام .

وتوفي سنة ٦٦٦ هـ .

مناسبة الشعر :

استبد بالشاعر شوقه إلى والده فكتب إليه هذا الشعر .

النص :

هذا كتابي إلى من غاب عن نظري — وشخصه في سويدا القلب والبصر
ولا يمر بطيف منه يطرقني — عند المنام ويأتيني على قدر
ولا كتاب له يأتي فأسمع من — أنبائه عنه فيه أطيب الخبر
حتى الشمال التي تسري على حلب — ضنت علي فلم تخطر ولم تسر
أخصه بتحياتي ، وأخبره — أني سئمت من الترحال والسفر
أبيت أرعى نجوم الليل مكتئبا — مفكراً في الذي ألقى إلى السحر
وليس لي أرب في غير رؤيته — وذاك عندي أقصى السؤل والوطر

تحليل :

هذه رسالة لا تتميز من النثر إلا أنها منظومة ، كتبها الشاعر إلى والده قاضى القضاة فى حلب ، يشتاق إليه ، وإلى رؤيته ، ويعتب عليه فيها عتبا رفيقا ، مهد له بأن الوالد أهمل ولده وقتاً ، فلم يسع إلى رؤيته ، ولم يكاتبه .

واعتمد الشاعر ـ للدلالة على شوقه واهتمامه ـ صورا مطروقة ، منها استحضار الطيف ، واستكتاب الكتاب ، واستقبال النسيم من جهة الأحبة ، والأرق .

ووقع الشاعر ـ فى البيت الثانى ـ فى خطأ فكرى ، فهو يطلب من محبوبه أن يمن بطيفه ليطرقه لدى المنام ، وليس لصاحب الطيف إرادة فى توجيه طيفه ، وإنما الإرادة للمحب الذى يستحضر طيف المحبوب ، بيد أن الشاعر قصد انصراف المحبوب عنه . ومثل ذلك ما أشار إليه فى البيت الرابع أن ريح الشمال لا تأتيه من « حلب » حيث يقيم المحبوب ، ومسيرة الريح لا تتعلق بإرادته ولا بإرادة المحب ، بيد أن الشاعر المحب جعل الريح ضنينة ، فقصد إلى أن يرمز بأن المحبوب لا يبعث إليه بالرسائل أو أنه لا يذكره

وصورة رعى النجوم ـ دلالة على الأرق ـ معروفة مكرورة ، والشاعر بات يرقب النجوم إلى وقت السحر ، وهذا خانه التوفيق فى إنهاء أرقه عندهذا الوقت ، وكان ينبغى أن يمتد به الأرق إلى ما بعد السحر ، ولكن القافية والنثرية كلتيهما أملتا على الشاعر لفظ (السحر) فى هذا البيت ، كما أملتا عليه لفظ (السفر) فى البيت قبله فجاء مع لفظ (الترحال) إطالة لا جدوى فيها .

والشاعر ابن العديم قريب عهد بالدولة العباسية ، وشعره ـ كما رأيت ـ نثر منظوم ، مما ينذر بهبوط الشعر واندحاره .

مفتون يتلمظ

الشاعر :

شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة ، وشهرته (التلعفرى) .

ولد بالموصل ، ونشأ بها ، وشب عن الطوق فاشتغل بالأدب مع خلاعة ولهو ومقامرة ، فطرده والى الموصل إلى حلب ، فسلك المسلك نفسه ، وطردوه عن الموصل إلى دمشق فاستأنف الخلاعة واللهو والمقامرة، حتى استجدى أواخر أيامه .

توفى سنة ٦٧٥ عن ٨٢ عاما .

النص :

سل عقيق الحمى ، وقل إذ تراه	خاليا من ظبائه المختاله
أين تلك المراشف العسليا	ت ، وتلك المعاطف العساله
وليال قضيتها كلآل	بغزال تغار منه الغزاله
بابلى اللحاظ والريق والأل	فاظ ، كل مدامة سلساله
ونقى الجبين والخد والثغ	ر ، فطوبى لمن حسا جرياله
وطويل الصدود والشعر والمط	ل . ومن لى بأن يديم مطاله

المفردات :

المراشف : مواطن الرشف والمص ويقصد الشفاه . العسليات : المنسوبة إلى العسل لونا وحلاوة . المعاطف : جمع معطف ويقصد به القوام . العسالة : من العسل (بسكون السين) وهو الاهتزاز - يشبه القوام بالرمح . طوبى : الخير والبركة . حسا جرياله : شربها على مهل والجريال هنا الخمر - يشبه بها رضابها .

تحليل :

هذا حديث غرام ، ولكنه غرام المغرمين بالنعوت الحسية وبعرض الألفاظ

على فنون البديع ـ أكثر مما يبدو اهتماماً بآثار العشق ، وخلجاته فى النفس .

وليس فى الأبيات إلا فكرة محدودة ، هى صدود المحبوبة ومطالها .

بادر يفتش عن محبوبته ، فلم يجدها ، فجعل يسائل ـ متجاهلا ـ أين هى وقد وجد الحمى خاليامن ظبائه المختالة ـ والمحبوبةواحدة من هذه الظباء ـ وأين المراشف التى كان يمتص رضابها الحلو ، وأين القوام الذى كان يشهده يتثنى كالرماح ، وما خبر لياليه التى قضياها معاً ؟ . ثم انتقل إلى نعتها فجمع السحر والسلاسة لحظها وريقها ولفظها ، والنقاء والطيب لجبينها وخدها وثغرها ، والطول لصدودها ومطالها وشعرها . وفى هذه التشابيه يجمع النظائر ، وهى نظائر حسية فيما عدا الصدود والمطال فهما معنويان وقرنهما بالشعر ، لكن ما أفتن الشعر الطويل ، وما أشقى المحب بطول الصدود وامتداد المطال !

وتقرأ الأبيات لتقع على هذا التجنيس بين العسليات والعسالة ، وبين الليالى واللآلى ، وبين الغزال والغزالة ـ الأول المحبوب والثانى المشبه به .

* * *

عيون آسرة وعيون ساهرة

الشاعر :

يعرف بالشاب الظريف ، وقد يعرف بابن العفيف ، واسمه محمد بن سليمان ابن على التلمسانى .

ولد فى مصر ، وعاش فى دمشق . وجود الشعر والترسل ، على الرغم من قصر عمره فقد توفى فى سنة ٦٨٨ عن ٢٧ عاما .

يقول القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى عن شعر الشاب الظريف : (رق شعره فكاد أن يشرب ، ودق فلا غرو للقضب أن ترقص وللحمام أن يطرب ... وأكثر شعره لا بل كله رشيق الألفاظ ، سهل على الحفاظ . لايخلو من الألفاظ العامية ، وما تحلو به المذاهب الكلامية)[١] . ومعظم شعره فى الغزل ، ويصلح للغناء والانبساط ، لكثرة ما يثيره من هواجس الهوى ولواعج الصلة .

وللشاب الظريف مقامة فى الغزل ، ضمنها فيض نفسه الوالهة ، وما احتمله من تباريح العشق والهيام .

وينقل الكاتبون فى (البيان) عنه كثيراً من تشبيهاته التى اشتهر بتنويعها ، كما ينقل البديعيون كثيراً من الأمثلة التى أبدى فيها الحذق والمهارة ، كقوله :

مثل الغزال نظرة ولفتة ... من ذا رآه مقبلا ولا افتتن
أعذب خلق الله ثغراً وفماً ... إن لم يكن أحق بالحسن فمن ؟
فى ثغره وخده وشكله ... الماء والخضرة والوجه الحسن

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢ / ٤٢٢ — طبعة النهضة المصرية — ١٩٥١ .

النص :

بعينيك هذى الفاترات التى تسبى ... يهون على اليوم قتــلى يا حبى
إذا ما رأت عينى جمالك مقبلا ... وحقك يا روحى سكرت بلا شرب
وإن هــز عطفيك الصبا متمايلا ... أضاع الهوى نسكى وغيبت عن لبى
فدعنى وهذا الخد أعصر فى فمى ... عناقيد صدغيه . وحسبى به حسبى
لو ان تجار اللؤلؤ الرطب شاهدوا ... ثناياك ما غنوا على اللؤلؤ الرطب
أيا ساقى الكأس الذى زاد خده ... عليها احمراراً ، عد الكأس عن صحبى
وما ذاك بخــلا بالمدام ، وإنما ... إذا لحت لم آمن عليهم من السلب
وبالله قل لى أيها الظبى كيف قد ... تعلمت صيد الأسد فى شرك الهدب
وماذا الذى قد بعت فاسترهنت به ... لديك الربا رهنا كثيبا من الكثب
فخذ قصة الشكوى من الاعين التى ... نفيت لذيذ النوم عنها بلا ذنب
ولا تعتبن صبا تهتك ســتره ... عليك ، فهتك الستر أليق بالصب

تحليل :

هذا غزل عاشق ، مفتون بالجمال ، مولع بحركات الدلال ، أسلم قياده لمشوقه ، على أمل الراحة ، فلم يحصل إلا التعب والوهن .

عيون المعشوق الفاترات : آسرات قاتلات مسكرات .

أعطاف المعشوق : تتثنى وتترنح فتخرج العابد عن طوره وتغيب العاقل عن لبه .

خد المعشوق : ممتلىء بالحيوية والرى ، وهو — كالخمر — مسكر ولاذ .

ثنايا المعشوق : أغلى من لؤلؤ التجار ، وقد صنعتها الطبيعة بيضا دقيقة ، ونظمتها نظما بديعا ،

أهداب المعشوق : تأسر ناظرها ، وتوقعه فى أشراكها ولو كان أعتى الأبطال . وانظر لفاتنة يقع الأبطال فى شركها كظبية تقنص أسدا . ولا تعجب ، فالاضعف هو الاقوى ، لأنه يملك سلاحا صار به الأقوى .

ردف المعشوق : ممتلىء كالكثيب مرتفع كالربوة ، فالتقط لمح العيون فاسترهنت عنده .

وهذا كله حديث شهوة . ولا حديث عما فعله العشق فى العاشق إلا من خلال عيونه ، تسببت المعشوقة فى نفى لذيذ النوم عنها - أى عن عيونه - بلا ذنب جناه . وأسهمت - بصدها أو دلالها - فى هتك ستره وكشف سره ، وهو عن هذا راض ، لأن هتـــك السر أليق بالصب الدنف ، وليس للمعشوقة أن تعتب إذا ما لحقها التشهير ، فإن ما وقع كانت هى صانعته والقاضية به .

مغامرة حالم

الشاعر :

هو عفيف الدين التلمسانى والد الشاب الظريف .

عاش حتى جاوز الثمانين . وتوفى سنة ٦٩٠ بعد ابنه بعامين .

اشتهر بالوجاهة ، وحسن العشرة ، واتهم برقة الدين ، وعرف فى أواخر أيامه بالميل إلى المتصوفة ، وترديد مصطلحاتهم .

النص :

إن كان قتلى فى الهوى يتعين	ياقاتلى فبسيف طرفك أهون
حسبي وحسبك أن تكون مدامعى	غسلى ، وفى ثوب السقام أكفن
عجباً لخدك وردة فى بانة	والورد فوق البان ما لا يمكن
أدنته لى سنة الكرى فلثمته	حتى تبدل بالشقيق السوسن
ووردت كوثر ثغره فحسبتنى	فى جنة من وجنتيه أسكن
ماراعنى إلا بلال الخال فو	ق الخد فى صبح الجبين يؤذن
فنشرت من خوف الصباح ذؤابة	هى كالدجى ، وظللت فيها أكمن

تحليل :

هذا شاعر محب رضى عن مقتله فى الهوى ، فعين أداة قتله : طرف المحبوبة مصوبة نظراتها سهاماً إلى قلبه . واستمرأ هذه النهاية ، فتوهم أنه مغسول مكفن ، فبدموعه ـ وما أكثرها ـ يغسل ، وبسقامه الذى بدل لون جلدته يكفن . ثم عاد يتعلق بدنياه ومتاعه منها ، فنظر المحبوبة وردية الخد ، رشيقة القد ، ينال مأربه منها ـ حين يشرق طيفها فى منامه ـ لثما وتقبيلا ، ولقد يدنو من الوجنات والخال الأسمر ، ويتمكن من وجهها ، ويلفهما شعرها الأسود ، ليسترهما عن الأعين الناظرة .

ومحور الفكرة نعت المحبوبة وتبيان ما تحدثه فى نفس محبها من الانبهار والإعجاب . وقد لون الشاعر هذه الفكرة فى أكثر من صورة . وليس هذا كله جديداً لاعلى المحبين ولاعلى الشعراء ، فكثيراً ماأفاضوا فى مقاتلهم بسهام اللحاظ ، وتحدثوا عن وفرة الدموع وشيوع السقام ، وإن كان الشاعر أبعد فى استخدام الدموع غسلا والسقام كفنا .

وتلاعب الشاعر بالصور التشبيهية فى أكثرمن موضع ، فهذا خد المحبوبة المشبه للوردة ـ وبالتبعية وجهها أو رأسها ـ فوق قامة مستوية رشيقة تشبه البانة . وهذا فى خياله وإن كان الواقع بعد ما بين الوردة والبانة ، لأن ثمرة البانة ـ إن أثمرت ـ لاتكون وردة . وجاء قوله : (والورد فوق البان مالايمكن) عبارة عن هذا . وإن كانت كلمة « لا يمكن » متنائية عن الذوق الشعرى .

وفى بيته : (أدنته لى سنة الكرى) أراد أن يعبر عن متعته بالطيف طول الليل ، ولكنه لم يكن ينظر ليلا وإنما كان ينظر ـ أو يلثم ـ ثغرا أشبه بالشقيق ـ الورد الأحمر ـ فبدل منه النهار ـ المشبه للسوسن .

وفى بيته التالى : جعل ثغر المحبوبة كوثراً على التشبيه ، فورده . ثم دلف من من الكوثر إلى الجنة ـ والكوثر نهر من أنهار الجنة ـ وتلاعب بالجنة والوجنتين تلاعبا لفظيا ،وهدفه أن يشير إلى التمكن من الوجنتين تمكن الساكن من مسكنه .

وفى البيت السادس : استحضر « بلالا » ورشحه بقوله فى آخر البيت «يؤذن» والذهن ينصرف إلى بلال مؤذن الرسول ، بيد أنه قصد من بلال وصفه وهو السواد ، فالخال نكتة سوداء فى الخد ، فهوأشبه ببلال الأسود ، والعرب تستملح الخال ، وتعده من أمارات الجمال ، ولا سيما فى الوجه الصبيح ـ ومحبوبته بيضاء الوجه بدليل تشبيه الجبين بالصبح فى هذا البيت . على أن تشبيه الخال ببلال ليس جديداً ، فابن المعتز سابق إليه بقوله : .

أسفر ضوء الصبح من وجهه ∴ فقام خال الخد فيه بـــلال

وأخذه الحاجرى فقال :

أقام بلال الخال فى صحن خده ∴ يراقب من لألاء غرته الفجرا

وهذا العفيف التلمسانى .. ومن بعده قال ابن نباتة المصرى :

وانظر إلى الخال فوق الثغر دون لمى ∴ تجد بلالا يراعى الصبح فى السحر

وأخيراً يذكر الشاعر أنه خاف الصباح ـ أى النهار ـ أن يفضحه وأن يقطع متعته ، فنشر ذؤابة المحبوبة ـ المشبهة للدجى ـ واستتر فيها، موهما نفسه أنه متستر بحندس الليل .

وهذه مغامرة حالم ، أسهم خياله فى تشكيلها وتوجيهها .

ما أحلى النصر

الكاتب :

القاضى محي الدين بن عبد الظاهر ، واسمه عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان ابن عبد الظاهر بن نجدة .

تولى ديوان الإنشاء زمن الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون ، فنظمه تنظيما خاصاً ، ووضع كثيراً من مصطلحاته ، التى ظلت معمولا بها فى مصر والشام ، حتى بعد وفاته فى سنة ٦٩٢ ﻫ إلى الفتح العثمانى لمصر فى سنة ٩٢٢ ﻫ .

والقاضى محي الدين من المتعصبين لطريقة القاضى الفاضل فى التزام السجع والتكلف بالمحسنات البديعية بعامة والإغراق فى التورية والطباق ومراعاة النظير . والفرق بينهما هو الفرق بين شخصيتهما ، فالقاضى الفاضل كان ذا موهبة فطرية مكنته من لفظه وصناعته ، أما من احتذوه فقد ألحوا على الصنعة إلحاحاً وتحيلوا على البديع .

وللقاضى محي الدين شعر فيه رقة وصنعة ، ولكنه لا يرقى إلى مستوى نثره ، مثل قوله :

بات جارى ودمع عينى جارى   فتحيرت بين جار وجارى
مفرد فى جماله إن تبدى   خجلت منه جملة الأقمار
فيه وجدى محقق وسلوى   وكلام العذول مثل الغبار

مناسبة الرسالة :

فتح السلطان المنصور قلاوون حصن « صافيتا » فى بلاد الأكراد ، فكتب القاضى عنه هذه الرسالة إلى صاحب اليمن يبشره بهذا الفتح .

الرسالة :

« . . . فمن ذلك حصن الأكراد الذى تاه بعطفه على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون ، وغدا جاذباً بضبع الشام ، وآخذاً بمخانق بلاد الإسلام ، وشالا فى يد البلاد ، وشجا فى صدر العباد . تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتربض بأرباضه آساد تحمى تلك الآجام ، وتفوق من قسيه سهام تصمى مفوقات السهام . تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويصطفى كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون . كم شكت منه (حماة) فله الإنصاف ، وكم خافته (معرة) وما من معرة خاف . مازالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه وتشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصى ، وتبكى بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى . حتى نبه الله ألحاظ سيوف الإسلام من جفونها ، ووفى النصرة ما وجب من ديونها ، وذاك بأنا قصدنا فسيح ربعه ، ونزلنا ونازلنا محمى صقعه ، وختمنا بنضالنا على قلبه وسمعه . . . »[1] .

المفردات :

تاه بعطفه : بمعنى افتخر بقوته ومنعته ، وأصل العطف (بالكسر) الجنب . الحرب الزبون : الحرب التى يتدافع فيها المقاتلون لكثرتهم . ضبع الشام : يقصد ناحية الشام وأصل الضبع العضد . أرباضه : أى نواحيه . الآجام : جمع أجمة وهى الغابة . تفوق ومفوقات (كلاهما بصيغة المفعول) : من فوق السهم (وكلها بتشديد الواو) جعل له فوقا (بضم الفاء) أى مكاناً يضع فيه الوتر عند الرمى . تصمى : تميت . الصياصى : الحصون المنيعة . العاصى : نهر من أنهار الشام .

تحليل :

تحدث الكاتب عن حصن (صافيتا) فى بلاد الأكراد ، فوصفه بالمناعة ،

---

(١) وهى رسالة طويلة نجتزىء منها بهذا القدر .

وبأنه مكن أهله ـ بمناعته هذه ـ من مصادمة الملوك ، والتعدى عليهم ، حتى صار جواره مكروهاً. وهكذا كانت لهذا الحصن هذه المكانة حتى قيض الله للسلطان فتحه.

واعتمد الكاتب فى عرض هذه المعانى على الصورة التشبيهية كثيراً .

فالحصن يفخر بقوته ومناعته على سائر الحصون ، ويشمخ بأنفه متطاولا ، ولا يجرؤ الأبطال أن يتدافعوا نحوه وينالوا منه ، وقد ظل قابضاً على الشام مسيطراً عليه متحكما فى بلاد الإسلام حتى أصابها بالشلل ، وبدا فى صدور أهلها ـ لطول ما كتم أنفاسهم ـ كالشجا فى الحلوق. والحصن يضم بين جنباته ـ من الأعداء ـ أبطالا كالصقور وكالآساد ، وعدتهم سهام تصمى وتميت وتقضى على ما عداها من السهام المشرعة . والحصن يشبه ملكا كبير السطوة تخضع لسطوته الملوك ، وتقدم له الجزية ولا تدفعه عن تخير ما يشاء من أموالهم . وهذه البلاد حوله تشكو جميعاً جوره وجواره برغم حصانتها ومناعتها ، وهذه (حماة) لم تحم نفسها منه ، وهذه (المعرة) خافته وما خاف هو من المعرة. وأخيراً قدر لسيوف الإسلام أن تصحو من غفوتها وأن تسل جفونها .

* * *

ومن اليسير أن تتعرف على صنعة الكاتب .

فالسجع : استهلك الرسالة كلها، حتى أن الكاتب تحيل لتحقيقه فى أكثر من موضع.

والجناس : تجده فى عدة مواضع : تربض بأرباضه، وصابرون لامصابرون، وجور جواره ، وحماة لم تحم نفسها ، والمعرة والمعرة ـ الأولى معرة النعمان والثانية مصدر بمعنى العار ، ونزلنا ونازلنا .

والتورية : فى (حماة) معناها القريب البلد المسماة بهذا الاسم ، والبعيد الحماة أم الزوجة . وفى (معرة) الأولى المعنى القريب البلدة والبعيد العار ، ولك أن تتصور أن العار يقع منه الخوف . وفى (العاصى) المعنى القريب النهر والبعيد العاصي ـ اسم فاعل من المعصية .

ومراعاة النظير : فى عبارته (شللا فى يد البلاد وشجا فى صدر العباد) فكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث تستحضر نظيرتها . وكذلك الألحاظ والجفون . وكذلك الحصون والصياصى وإن جاءت الصياصى أصلا لتكمل السجعة .

والتضمين : قوله : (تعطى الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون) فضمن قوله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » - توبة ٢٩ - وقوله (وختمنا بنضالنا على قلبه وسمعه) مضمن قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه » - الجاثية ٢٣ -

ولعلك - بعد أن وقفت على صنعة الكاتب - تأكد لديك أنه يحتذى طريقة القاضى الفاضل ، ويسرف فى الاحتذاء .

من أين لك هـــذا

الشاعر :

الإمام البوصيرى ، واسمه محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجى (نسبة إلى قبيلة صنهاجة من عرب المغرب) الدلاصى (نسبة إلى دلاص بلد أبيه) البوصيرى (نسبة إلى بوصير بلد أمه) ، وكلا البلدين فى صعيد مصر الأدنى ، وربما نحتوا له من البلدين فقالوا : (الدلاصيرى) .

لازم هو وابن عطاء الله السكندرى شيخهما أبا العباس المرسى .

يقول ابن شاكر الكتبى ـ فى وفيات الوفيات ـ (كان البوصيرى يعانى صناعة الكتابة والتصرف وباشر الشرقية ببلبيس) ، ولعل مقصوده من الكتابة الحساب ومن التصرف ضبط الشئون ومن المباشرة رياسة الجهة . ومع ذلك شكا ـ وشعره شاهد عليه ـ من قلة الرزق وكثرة العيال .

وشغل فى أواخر عمره بالمديح النبوى ، حتى توفى سنة ٦٩٥هـ .

وشعره فى هذا المديح جيد المعانى ـ بحسب مذهبه ـ وجيد الألفاظ ، وفيه كثير من الأقوال الحكيمة والمأثورة . وشعره فى مديح الناس ومجاملتهم أدنى من شعر المـــديح النبوى فى معانيه وألفاظه . وشعره فى الدعابة والشكاية أقرب إلى الإسفاف .

وفى شعره كله ظاهرة بينة ، وهى طول نفسه ، فالهمزية ٤٥٦ بيت ، والبردة ١٦٢ بيت ، وذخر المعاد ٢٠٦ بيت ، وأم النارين ٩٩ بيتا ـ وكلها فى المـــديح النبوى ـ وقصيدته فى مدح الأمير التركى (أيدمر) ٣١٠ بيت . وقصيدته فى تعزية أبى العباس المرسى عن شيخه أبى الحسن الشاذلى ١١٨ بيت .

مناسبة القصيدة :

اطلع الشاعر من خلال عمله على سوءات العاملين والكتبة وسائر المباشرين فأنشأ قصيدة انتقادية ، حفظ الرواة منها هذه الأبيات .

القصيدة :

نقدت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجلا أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال هم جميعاً ... فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وماعرفنا ... بهم ، فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك مالبسوا حريراً ... ولاشربوا خمور الأندرينا
ولا ربوا من الولدان مرداً ... كأغصان يملن وينحنينا
وقد طلعت لبعضهم ذقون ... ولكن بعد ماحلقوا ذقونا
وأقلام الجماعة جائلات ... كأسياف بأيدى لاعبينا
وقد ساوقتهم حرفا بحرف ... وكل اسم يخطوا منه سينا
أمولاى الوزير غفلت عما ... يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك معشر منهم ، وعدوا ... من الزهاد والمتورعينا
وقيل : لهم دعاء مستجاب ... وقد ملئوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة فخان كل ... أمانته ، وسموه الأمينا
وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون : لنا حقوق ... بها ، ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط : نحن ملوك مصر ... وإن سواهم هم غاصبونا
وحللت اليهود بحفظ سبت ... لهم مال الطوائف أجمعينا

وما (ابن قطيبة) إلا شريك   لهم فى كل ما يتخطفونا
أغار على قرى (فاقوس) منه   بجور يمنع النوم الجفونا
وصير عينها حملا ، ولكن   لمنزلة ، وغلتها خزينا
وأصبح شغله تحصيل تبر   وكانت راؤه من قبل نونا
وقدمه الذين لهم وصول   فتمم نقصه صلة (اللذينا)
وفى دار الوكالة أى نهب   فليتك لونهبت الناهبينا
فقام بها يهودى خبيث   يسوم المسلمين أذى وهونا
إذا ألقى بها موسى عصاه   تلقفت القوافل والسفينا
وشاهدهم إذا اتهموا يؤدى   عن الكل الشهادة واليمينا

المفردات :

لبثت فيهم : أقمت فيهم . الأندرين : من مصانع الخمور فى القديم وذكرها عمرو بن كلثوم فى مطلع معلقته . المردان والمرد : كلاهما جمع أمرد وهو الشاب طر شاربه ولم تنبت لحيته . ساوفتهم: يقصد عرفتهم عن كثب ، وأصل المساوفة المشامة والمسارة . السحت : الحرام وماخبث من المكاسب . عينها : من معانى العين التى تصلح هنا : الذهب ، والعتيد من المال ، والمال ، والحاضر من كل شىء والمختار من كل شىء .

تحليل :

هذه صرخة انتقادية إصلاحية من الشاعر ، كشفت عما رآه فى طوائف المستخدمين من الفساد والضلال، إذ رماهم بكل نقيصة ، وأعفاهم من كل فضيلة ، ووسمهم بالغش ، وبالمراءاة بالعبادة ، وبالدجل ، وبخيانة الأمانة ، وباغتصاب الأموال . فسد الكبار فجاراهم من هم دونهم ، وبدافع « الوصولية » سول هؤلاء الدون للكبار أن ينهبوا ، فعم النهب والسلب ، وتستروا جميعاً على المظالم ،

واشترك المسلمون والقبط واليهود فى استغلال السلطة ، ولم يجدوا القضاة العدول ولا الشهود العدول .

ووقع الشاعر على عدة صور ، جنح كثير منها إلى التندر والسخرية ، فقد صار الكتبة من أهل الشمال ـ والشمال مثال فى الشؤم ـ « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم » .

وسراق الغلال يرتكبون جرائمهم دون أن يحس بهم أحد ، مع أن معاملة الغلال ونحوها مما لا يمكن إخفاءه ، ولكنهم استخدموا شطارتهم فى إسرار جرائمهم ، فأشبهوا سراق الكحل من العيون ، وهذا مثل شعبى يضرب فى خفة اليد .

والمستخدمون كانوا فى فقر ومسغبة وحاجة وخنوع ، فتبدلوا بها رفاهية وغنى وجاها ، فلبسوا الحرير ، وشربوا الخمور ، واستخدموا الولدان المردان ، وأطلوا بذقونهم تشبهوا بالوجهاء والأعيان .

واستغلوا مهارتهم الحسابية فى تزييف الحساب على الناس ، وتسلطوا بأقلامهم عليهم ، فنالوا منهم كما تنال السيوف فى أيدى السيافين المهرة ، على أن أرباب هذه الأقلام غير صالحين لما أنيط بهم ، يقول الشاعر :

لقد ساوقتهم حرفا بحرف وكل اسم يخطوا منه سينا

فهو لا يتهمهم جزافا ، وإنما يقول ما يقول فيهم عن خبرة وتجربة واطلاع .

ومن المستخدمين من تنسك وتزهد وتظاهر بالتقوى ، مع أنهم قد ملئوا بطونهم سحتا وحراما ومكاسب خبيثة .

حتى القضاة ـ فى سبيل الوقوع على ما بأيدى الناس ـ تشبهوا بالفقهاء فى الفتوى والاجتهاد . ويقصد الشاعر أن القضاة استغلوا اسم الدين لصالحهم فتأولوا النصوص وخانوا ما بين أيديهم من أمانة القضاء ، ربما لينتفعوا ، وربما ليجروا إلى وجهاء المستخدمين المنافع .

وتبارت الطوائف فى استغلال النفوذ ومصادرة الأموال ، وكل طائفة تبرهن على حقها فى الانفراد بالتصرف . فالمسلمون يدعون أنهم السادة وأن مايأخذونه يأخذونه بحق السيادة ، والقبط يسترجعون دعواهم أنهم أهل مصر القديمة قبل أن يفتحها العرب ، واليهود يستحلون أموال الطوائف كلها ماداموا يحفظون حرمة يوم السبت ولا يعملون فيه .

وهذا كبيرهم (ابن قطبية) المباشر فى جهة (فاقوس) يتغاضى عن حساب المستخدمين ، فصار شريكا لهم فى الجريمة ، وأقض مضاجع القوم ، ومايهمه إلا تحول الأموال والغلال إلى خزائنه ومخازنه ، وأن يشتغل بتحصيل التبر (رمزاً إلى ثروته الطارئة) وينسى أنه منذ قريب كان يمتهن العمل فى التبن (رمزاً إلى ضعة ماضيه) .

وفى قول الشاعر : (فليتك لو نهبت الناهبينا) أمنية أن يتولى الوزير ـ الذى توجه إليه بالخطاب فى البيت العاشر ـ محاسبة أولئك الناهبين ، وأن يستعيد ماحصلوه من المال بطريق غير شرعى . وعبر الشاعر بالنهب عن استعادة المال مشاكلة لصنيع الناهبين من النهب .

أو لعل الشاعر يشير إلى أن الأسلوب الذى يصلح للمحاسبة هو أسلوب القوة والبطش والتسلط والقهر ، والجزاء من جنس العمل ، على أن إدخال الفعل (نهبت) فى نطاق التمنى بليت ولو يرشح الفعل للاستقبال ، فضلا عما يتضمنه من التجدد والموالاة ، فكلما حصل منهم نهب حصل منه استعادة لما نهبوه ، حتى تستقيم الأمور ، ويعتدل النظام .

سحائب الهموم

الشاعر :

ابن دقيق العيد ، واسمه أبو الفتح تقى الدين محمد بن على بن وهب بن مطيع ابن أبى الطاعة القشيرى .

أبوه الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد واحد من أعيان (قوص) وفقهائها - وكانت فى ذلك الوقت مركزا علميا متقدما فى صعيد مصر الأعلى - سافر إلى الحج فى سنة ٦٢٥ ﻫ ، وولد له ابنه محمد فى (ينبع) .

درس الشاعر علوم وقته ، وفى مقدمة أشياخه أبوه والفقيه المجتهد عز الدين ابن عبد السلام، ونبغ شاعرنا فى الحديث وعلومه، وفى فقه الشافعية والمالكية، وولى منصب قاضى قضاة الشافعية فى فترات متقطعة متقاربة من سنة ٦٩٥ ﻫ حتى سنة وفاته ٧٠٢ ﻫ .

والمطلع على جملة شعره يخرج بالنتائج الآتية :

١ - معانيه سلفية أو تقليدية . والطريف فيها أنه أحد الذين تمنوا الشيب .

٢ - أغراضه متنوعة ، وأظهر أغراضه مديح الرسول .

٣ - أسلوب وسط ، ويحشوه بالبديع ومصطلحات الفقه كقوله :

تهيم نفسى طربا عندما ... أستملح البرق الحجازيا
ويستخف الوجد عقلى وقد ... لبست أثواب الحجا زيا
يا هل أقضى حاجتى من منى ... وأنحر البزل المهاريا
وأرتوى من زمزم فهى لى ... أرق من ريق المهاريا

وقوله :

يا معرضا عنى وليس بمعرض — بل ناقضاً عهدى وليس بناقض
أتعبتنى بخـلائق لك لم يفد — فيها وقد جمحت رياضة رائض
أرضيت أن تختار رفضى مذهباً — فتشنع الأعـداء أنك رافضى

(رافضى معناها القريبُ : رافض ـ اسم فاعل من رفض مضافاً إلى ياء المتكلم ، ومعناها البعيد الواحد المنسوب إلى الشيعة الرافضة) .

النص :

أفكر فى حالى وقـرب منيتى — وسيرى حثيثا فى مصيرى إلى القبر
فينشىء لى فكرى سحائب للأسى — تسح هموما ، دونها وابل القطر
إلى الله أشكو من وجودى، فإننى — تعبت به مذ كنت فى مبتدا العمر
نروح ونغـدو ، والمنايا لجائع — تكـدره ، والموت خاتمة الأمر

المفردات :

المنية : الموت . السير الحثيث : السريع . تسح : تسكب . وابل القطر : الوابل المطر الشديد الضخم القطر، والقطر المراد به المطر .

تحليل :

هذه أبيات فى الشكوى ، محورها الفكر فى الموت .

يذكر أنه ميت لا محالة ، وأنه قريب من المصير المحتوم ، فيركبه الأسى والحزن ، وتلبسه الهموم . وإذا كانت الحياة مآلها إلى الفناء فإن وجوده نفسه يصبح ـ فى تقديره ـ مناط الشكوى ومحور المعاناة ، فلقد حمل الإنسان بسبب هذا الوجود متاعب الحياة من أول لحظة ، وأصبحت حركة المرء فى دنياه رصداً للمنية ، وهذه المنية قادرة على أن تشل تلك الحركة وتقضى عليها القضاء الأبدى .

والشاعر جسم له فكره أحزان الحياة هموما ونوازل، تتساقط عليه كما تنصب سحائب المطر، كلتاهما لا حيلة للبشر فى التصدى لها، ولا إرادة لهم فى توجيه نشاطها.

والشاعر يفصل بين شخصه ووجوده، بحيث صار وجوده متعبة لشخصه وكأنه خصم أو عدو قاهر مسلط عليه.

والشاعر - وهو يشكو وجوده - كان أولى له أن يستقبل الموت باطمئنان واستبشار، أو - على الأقل - لا يتضرر من وقوعه، لأن الموت ينهى متاعبه ويضع حداً لآلامه. ولكن الشاعر ما يزال متعلقاً بالحياة الدنيا حين جعل المنايا لجائع تكدر الوجود، فبدا كارها وقوع المنايا، وحريصا على أن يسلم الوجود من الكدر.

هذا طريق السالكين

الحكيم :

هو أبو الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى الصوفى المتوفى سنه ٧٠٩هـ .

استوطن القاهرة ، وسلك طريق المتصوفة ، « وكان رجلا صالحا ، عالما ، يتكلم على كرسى ، ويحضر ميعاده خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير فى القلوب ، وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق ، وكان له نظم حسن على طريق القوم»[1] . ومن شعره :

ياصاح إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعود . ما الذى أنت صانع

أترضى بأن تبقى المخلف بعدهم صريع الامانى والغرام ينازع

وهذا لسان الكون ينطق جهرة بأن جميع الكائنات قواطع

صنف نحواً من عشرين كتاباً فى موضوعات شتى ، أشهرها :

١ - تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس - فيه عظات للزهادة والتطهر من الدنيا والخلاص من أوزارها والدعوة للتوبة والإقبال على الله .

٢ - لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن الشاذلى .

٣ - الحكم العطائية - وهى حكم صوفية ترتفع بالنفس الإنسانية إلى مقام الحب الإلهى والفناء فى الذات العلية .

مختار الحكم :

تبلغ الحكم العطائية ٢٦٤ حكمة ، ويدرسها سالك الطريق إلى المعرفة ، ونختار

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردي - ج ٨ ص ٢٨٠ - طبعة دار الكتب .

منها غيضا من فيض ، مما يسهل فقهه ، ونعقب كل حكمة بشرحها ، نقلا عن الشيخ عبد المجيد الشرنوبى ، من علماء الأزهر فى القرن الحادى عشر الهجرى .

١ - (أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك) :

أرح نفسك من تعب التدبير المنافى للعبودية ، بأن تقول . لولا مافعلت كذا كان كذا ، فإن الله - تعالى - دبر الأشياء فى سابق علمه . وماقام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك ، فإنك عاجز عن القيام به . وأما التدبير المصحوب بالتفويض للعليم الخبير فلابأس به ، لقوله - ﷺ : « التدبير نصف المعيشة » .

٢ - (ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه) .

ادفن - أيها المريد - نفسك - أى شهرتها - فى الخمول ، الذى هو كالأرض للميت فى التغطية التامة ، بألا تتعاطى أسباب الشهرة ، فإن الخمول مما يعين على الإخلاص . بخلاف حب الظهور ، فإنه من جملة القواطع القاصمة للظهور ، فما نبت من الحب مما لم يدفن فى الأرض لايتم نتاجه ، بل يخرج مصفراً . وكذلك أنت - أيها المريد - إذا تعاطيت أسباب الشهرة فى بدايتك قل أن تفلح فى نهايتك ؛ ومن ثم قال رجل لبشر بن الحارث : أوصنى . فقال : « أخمل ذكرك ، وأطب مطعمك » . وقال بعضهم : « لاتصلح طريقتنا هذه إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل » . وقال إبراهيم بن أدهم : « ماصدق الله من أحب الشهرة » . ولله در القائل :

عش خامل الذكر بين الناس وارض به   فذاك أسلم فى الدنيا وفى الدين
من عاشر الناس لم تسلم ديانته   ولم يزل بين تحريك وتسكين

٣ - (لاتطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج) .

لا تطلب - أيها المريد - من الله تعالى أن يخرجك من حالة موافقة للشرع

دنيوية أو دينية لتوهمك أن غيرها أرقى منها ، لأنه تخيير على مولاك ، ولا خيرة لك فى ذاك ، فلو أرادك ـ أى جعلك من أهل ارادته وخاصته ـ لاستعملك استعمالا محبوباً عنده من غير إخراج من الحالة التى أنت عليها . وأما لو كانت الحالة غير موافقة للشرع فإنه يجب عليك المبادرة وطلب الإخراج منها والانتقال إلى غيرها ، كما قال بعض الأكابر : فإن أقامك عظيم المنة ، فى عمل موافق للسنة ، فهو مقامك الذى يليق بك ، فلا ترم خلافه بشهوتك ، لو شاء ربنا العظيم المالك ، ومن له التصريف فى الممالك ، لكنت فى المطلوب من غير طلب ، فارض بحكم الله والزم الأدب . وإن أقامك هواء الطبع ، فى عمل مخالف للشرع ، فبادر الخروج لا تماطل ، واقطع بسيف العزم كل حائل .

٤ — (لا ترحل من كون إلى كون ، فتكون كحمار الرحى ، يسير والذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل منه . ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون ، « وأن إلى ربك المنتهى » ، وانظر قوله ـ ﷺ ـ : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، فافهم قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم ، والسلام) .

لا تطلب بأعمالك الصالحة عوضاً ، ولو فى الآخرة ، فإن الآخرة كون كالدنيا ، والأكوان متساوية فى أنها أغيار ، وإن وجد فى بعضها أنوار ، بل اطلب بها وجه الكريم المنان ، الذى كون الأكوان ، وفاء بمقتضى العبودية ، وقياماً بحق الربوبية ، لتتحقق بمقام « وأن إلى ربك المنتهى » ، وهذا مقام العارفين ، الذين رغبوا عن طلب الثواب ، ومحضوا النظر إلى الكريم الوهاب ، فتحققوا بمقام الإخلاص ، الناشىء عن التوحيد الخاص . وأما من فر من الرياء فى عبادته وطلب بها الثواب ، فقد فر من كون إلى كون بلا ارتياب ، فهو كحمار الرحى ـ أى الطاحون ـ يسير ولا ينتقل عما سار منه لرجوعه إليه ـ وفى هذا التشبيه من التنفير عن هذا الأمر مالا مزيد عليه ـ وانظر إلى قوله ـ ﷺ ، فى الحديث الصحيح ـ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن

كانت هجرته إلى الله ورسوله » - أى نية وقصداً - « فهجرته إلى الله ورسوله » - أى وصولا ، فلم يتحد الشرط والجزاء فى المعنى ، فقوله : « فهجرته إلى الله ورسوله » هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون ، وهو المطلوب من العبد. وقوله : « فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، هو البقاء مع الأكوان ، وهو المنهى عنه.

٥ — (إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شىء لغيبتهم عن الله فى كل شىء، فلو شهدوه فى كل شىء لم يستوحشوا من شىء).

إنما يستوحش العباد - بضم العين جمع عابد - والزهاد - جمع زاهد - أى ينفرون من كل شىء يقطعهم عن الله ، لغيبتهم عن الله فى كل شىء ، لكونهم محجوبين عنه - تعالى - برؤية نفوسهم ، ومراعاة حظوظهم ، فإن الزهد فى المزهود، شاهد له بالوجود، ولذا فروا من الأشياء واستوحشوا منها مخافة أن تفوت عليهم مقاصدهم ، لميلهم إليها ، وافتتانهم بها ، فلو شهدوه فى كل شىء كما شهده العارفون والمحبون لم يستوحشوا من شىء ، لرؤيتهم له حينئذ ظاهراً فى الأشياء كلها ، لأنهم يستدلون به عليها، فيكون فى ذلك من قرة أعينهم ما يشغلهم عن رؤيتهم لنفوسهم فلا يكون لهم من الأشياء وحشة ، لا يخشون منها فتنة ، لأنها فانية متلاشية بهذا الاعتبار . جعلنا الله من أهل محبته ، إنه كريم غفار .

٦ — (الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له).

الفكرة بمنزلة السراج للقلب ، يستضىء بها ، لأن بها تنجلى حقائق الأمور ، فيظهر الحق من الباطل ، وتعرف آفات النفس بالتفكر فى معايبها ومكايدها. وتعلم مكايد العدو ، وغرور الدنيا ، ونحو ذلك . فإذا ذهبت الفكرة منه فلا إضاءة له ، فيكون كالبيت المظلم ، والعياذ بالله .

عاشق السماء والمساء

الشاعر :

أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي .

نشأ فى دمشق ، وسمع الحديث والفقه من أشياخ عصره ، وتخرج فى العربية على (ابن مالك النحوى) ، ورحل إلى مصر ، واتصل بسلاطين المماليك ، وعمل لهم فى ديوان الإنشاء ، وآخر ديوان تولاه هو ديوان دمشق لدى السلطان بيبرس البندقدارى ، وظل فيه حتى توفى سنة ٧٢٥ عن نحو من ثمانين عاما .

له عدة مصنفات : منازل الأحباب ومنازه الألباب فى الهوى العذرى ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل فى الإنشاء ، وأهنأ المفاتح بأسنى المدائح فى مدح الرسول وتبلغ عدتها ٢٣٦٥ بيت ، وذيل على الكامل لابن الأثير فى التاريخ .

النص :

وكم ليلة سامرت فيها نجومها كأنى راع ضل عنه سوامها
كأن الثريا والهلال ودارة حوته وقد زان الثريا التئامها :
حباب طفا من حول رفرف فضة بكف فتاة طاف بالراح جامها
كأن نجوماً فى المجرة : خرد سواق رماها فى غدير زحامها
كأن رياضا قد تسلسل ماؤها فشقت أقاحيها وشاق خزامها
كأن سنا الجوزاء : إكليل جوهر أضاءت لآليه فراق انتظامها

كأن لدى النسرين فى الجو غلمة رماة ، رمى ذا دون هذا سهامها
كأن سهيلا والنجوم وراءه : صفوف صلاة قام فيها إمامها
كأن الدجى : هيجاء حرب ، نجومه أسنتها ، والبرق فيها حسامها
كأن النجوم الهاديات : فوارس تساقط مابين الأسنة هامها
كأن سنا المريخ : شعلة قابس تلوح على بعد ويخفى ضرامها
كأن السها : صب سها نحو إلفه يراعى الليالى جفنه لاينامها

المفردات :

السوام (بالتشديد وخففها الشاعر للنظم) : الإبل السائمة أى الراعية . الحباب (بالفتح) : الفقاقيع التى تطفو . الرفرف : الثياب الخضر المبسوطة وماتهدل من الأغصان . الجام : إناء من الفضة . المجرة : مجموعة نجوم دقاق متقاربة تتمثل لرائيها كجدول من الماء . الخرد : جمع خريد وخريدة وخرود وهى البكر أو الخفرة الخافضة الصوت المتسترة . الأقاحى : من الزهور البرية أو هو البابونج الخزام : فى كتب اللغة : الخزامى - كحبارى - نبت برى زهره أطيب الأزهار نفحة الجوزاء : برج من أبراج السماء تقع فيه الشمس فلكياً فى نهاية فصل الربيع . النسران : كوكبان من كواكب السماء يسمى أحدهما الواقع والآخر الطائر . الغلمة : الغلمان جمع غلام . المريخ : نجم من النجوم الخنس - قيل هى الكواكب كلها ، وقيل هى الكواكب السيارة ، وقيل هى خمسة : زحل والمشترى والمريخ وزهرة وعطارد ، ومعنى خنوسها أنها تغيب عن البصر وتغرب . الضرام (بوزن كتاب) : دقاق الحطب ، أو ما اشتعل منه ، أو مالا جمر له ، أو ما ضعف ولان السها : كوكب خفى فى بنات نعش الصغرى ، وأولها يسمى القائد والثانى العناق وإلى جانبه قائد صغير وثانيه عناق وإلى جانبه الصيدق وهى السها والثالث الحور . سها (الفعل) : بمعنى نظر وهو ساكن الطرف .

تحليل :

هذا حديث ساهر اعتاد السهر وصحبة نجوم السماء .

فهو ـ أولا ـ يصف نفسه وقد اتسعت أمامه مرائى الفضاء بأنه كالراعى الذى يرعى سائمة كثيرة فشردت عنه ولم يستطع السيطرة عليها .

وهو ـ ثانياً ـ يصف هذه المرائى ، ملتمساً لكل منظر شبهاً مما تقع عليه أعين الناس ، وكأنه يدنى بالتشبيه مارأى ونظر لمن لم يكن رأى ونظر ، وأحياناً يخترع الأشباه بأن يجمع أفرادها من الواقع ويقوم خياله بتركيبها على نحو من الأنحاء . وحاول أن تجمع هذه المناظر بمخيلتك :

منظر الثريا مزدانة ملتئمة مع الهلال فى دارته كحباب الراح طفت على سطح إناء من الفضة حوله خضرة وهو فى كف فتاة تتنقل بين الشاربين .

منظر النجوم فى المجرة كحسان يتزاحمن فى غدير الماء ليملأن الجرار .

منظر المجرة كرياض ذوات مياه انسابت وسط الأزهار ، فأسهمت عتمة الأزهار فى بدوها ولمعانها من خلالها .

منظر ضوء الجوزاء اللامع كإكليل من الجوهر المنظوم اللآلى.

منظر (النسرين) وأحدهما واقع والآخر طائر كاثنين من الرماة أخذا السهام من حولها فرمى أحدهما وكف الآخر .

منظر (سهيل) ومن ورائه النجوم التوابع كإمام فى الصلاة يؤم صفوف المصلين المبتهلين .

منظر الدجى (الظلمة) وما يبين من خلال الظلام من نجوم وبرق كميدان المعركة غطاها النقع المثار وبدت من أثنائه الأسنة والسيوف ـ عكس ما قال بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ـ ليل تهاوى كواكبه

منظر النجوم الثوابت ـ وهى التى ينصبها الناس للهداية فى وسط السماء ـ كأسنة لوامع فى الحرب تحصد رءوس الأبطال .

منظر المريخ يلوح من بعد سحيق ضوؤه نورا هادئا ثاقبا كما تلوح الشعلة من بعيد دون حطبها الذى يضرم نارها ويزيدها اشتعالا .

منظر (السها) ـ وهو نجم خابى الضوء ـ كعاشق نظر طرفه فى سكون إلى معشوقته عيانا أو وهماً فأصابه مايشبه الخمود والهمود .

وكلها مناظر رائعة ، وربما احتاج بعضها إلى جهد واستبصار ومعاناة ، ولكن تبقى ـ دائماً ـ الروعة فى عقد الصلة بين المنظور والمثال .

أنت من الدنيا على خطر

الباحث :

الإمام تقى الدين بن تيمية .

ولد فى (حران) سنة ٦٦١هـ ، وفر به أبوه وهو طفل من وجه المغول الذين قوضوا الدولة العباسية إلى دمشق ، فنشأ بها ، واستوعب العلوم ، ونبغ فى الفقه وأصوله وفى الحديث والتفسير ، واشتهر دون سن العشرين .

ثم انقطع للفتيا والتأليف ، حتى كون لنفسه مذهبا ، قوامه التوفيق بين المعقول والمنقول . وكان جريئاً فى آرائه ومناظراته ، شديداً على المبتدعين ، وتعرض من أجل هذا لمناوأة خصومه وحسدته ، وشكوه إلى السلطان فى مصر ، فاستقدمه وعقد لمناظرته عدة مجالس ، كان يحبسه إثرها أو يطلقه ، وهكذا أمضى سبعة أعوام فى مصر مابين حبس وإطلاق ، عاد بعدها إلى دمشق ، وعاد المناوئون إلى مناوأته ، حتى صرح بأن زيارة قبور الأنبياء والصالحين ليست بواجبة ، فحمل الفقهاء عليه حملة شعواء ، وحملوا الوالى على حبسه ، واستمر يؤلف وهو فى محبسه ، فمنعوه الورق والقلم ، فكان يكتب على حائط السجن مايعن له ، وتوفى فى محبسه سنة ٧٢٨ هـ .

يقال : إن مصنفاته بلغت الثلثمائة . ومن أشهرها : فتاوى ابن تيمية ـ الإيمان ـ منهاج السنة النبوية فى نقض الشيعة والقدرية ـ الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان ـ الواسطة بين الحق والخلق ـ منتقى الأخيار ـ مجموع الرسائل الكبرى .

البحث :

من كتاب (السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية) ، وهو كتاب بحث فيه ابن تيمية نموذج الحكم المرضى فى الإسلام ، وأقامه على آية الأمراء فى القرآن

الكريم ، وهى قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعاً بصيراً. يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ ذلك خير وأحسن تأويلا » ـ النساء ٥٨و٥٩ .

قال ابن تيمية فى ختام كتابه :

الناس أربعة أقسام :

(القسم الأول) : قوم يريدون العلو على الناس والفساد فى الأرض ـ وهو معصية الله ـ وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون وحزبه ، وهؤلاء هم شر الخلق ، قال تعالى : « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين » . وروى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولايدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان : فقال رجل : يارسول الله ، إنى أحب أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسناً ، أفمن الكبر ذاك ؟ . قال : لا . إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » ـ فبطر الحق : جحده ودفعه . وغمط الناس : احتقارهم وازدراؤهم ـ وهذه حال من يريد العلو والفساد .

والقسم الثانى : الذين يريدون الفساد بلا علو ، كالسراق ، والمجرمين ، وسفلة الناس .

و(القسم) الثالث : يريد العلو بلا فساد ، كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس .

والقسم الرابع : فهم أهل الجنة الذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، مع أنهم قد يكونون أعلى من غيرهم ، كما قال تعالى : « ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين » ، وقال : « فلاتهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون »

والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم » ، وقال : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

فكم ممن يريد العلو ، ولايزيده ذلك إلا سفولا ، وكم ممن جعل من الأعلين وهو لايريد العلو ولا الفساد ؛ وذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم ؛ لأن الناس من جنس واحد ؛ فإرادة الإنسان أن يكون هو الأعلى ونظيره تحته ظلم ؛ ومع أنه ظلم فالناس يبغضون من هو كذلك ويعادونه ، لأن العادل منهم لايحب أن يكون مقهوراً لنظيره ، وغير العادل منهم يؤثر أن يكون هو القاهر . ثم إنه مع هذا لابد لهم — فى العقل والدين — من أن يكون بعضهم فوق بعض كما قدمناه ، كما أن الجسد لايصلح إلا برأس ؛ قال تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » ، وقال تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

فجاءت الشريعة بصرف السلطان المال فى سبيل الله . فإذا كان المقصود بالسلطان والمال هو التقرب إلى الله وإقامة دينه وانفاق ذلك فى سبيله ، كان ذلك صلاح الدين والدنيا . وإن انفرد السلطان عن الدين ، أو الدين عن السلطان ، فسدت أحوال الناس .

وإنما يتميز أهل طاعة الله عن أهل معصيته بالنية والعمل الصالح ، كما فى الصحيح عن النبى — ﷺ — أنه قال : « إن الله لاينظر إلى صوركم ، ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم ، وإلى أعمالكم » .

ولما غلب على كثير من ولاة الأمر إرادة المال والشرف ، وصاروا بمعزل عن حقيقة الايمان فى ولاياتهم ، رأى كثير من الناس أن الإمارات تنافى حقيقة الايمان وكمال الدين ، ثم منهم من غلب الدين وأعرض عما لايتم الدين إلا به من ذلك ، ومنهم من رأى حاجته إلى ذلك ، فأخذه معرضا عن الدين ، لاعتقاده أنه مناف لذلك ، وصار الدين عنده فى محل الرحمة والذل لا فى محل العلو والعز . وكذلك

لما غلب على كثير من أهل الديانتين العجز عن تكميل الدين والجزع لما قد يصيبهم في إقامته من البلاء ، استضعف طريقهم ، واستذلها من رأى أنه لاتقوم مصلحته ومصلحة غيرها بها .

وهاتان السبيلان الفاسدتان ـ سبيل من انتسب إلى الدين ولم يكمله بما يحتاج اليه من السلطان والجهاد والمال ، وسبيل من أقبل على السلطان والمال والحرب ولم يقصد بذلك اقامة الدين ـ هما سبيل المغضوب عليهم والضالين ، الأولى للضالين النصارى ، والثانية للمغضوب عليهم اليهود .

وإنما الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ هى سبيل نبينا محمد ـ ﷺ ـ وسبيل خلفائه وأصحابه ، ومن سلك سبيلهم ، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ـ رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم .

فالواجب على المسلم أن يجتهد فى ذلك بحسب وسعه . فمن ولى ولاية يقصد بها طاعة الله واقامة ما يمكنه من الواجبات ، واجتنب ما يمكنه من المحرمات ، لم يؤاخذه بما يعجز عنه ، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار . ومن كان عاجزا عن اقامة الدين بالسلطان والجهاد ، ففعل مايقدر عليه من النصيحة بقلبه والدعاء للأمة ومحبة الخير وأهله ، وفعل مايقدر عليه من الخير ، لم يكلف بما يعجز عنه ، فإن قوام الدين بالكتاب الهادى ، والحديد الناصر ، كما ذكره الله تعالى .

فعلى كل أحد الاجتهاد فى اتفاق القرآن والحديد لله ، ولطلب ماعنده مستعينا بالله فى ذلك .

ثم الدنيا تخدم الدين كما قال معاذ بن جبل : « يابن آدم ، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت الى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الآخرة

مر بنصيبك من الدنيا فانتظمها انتظاما ، وان بدأت بنصيبك من الدنيا فاتك نصيبك من الآخرة ، وأنت من الدنيا على خطر » .

دليل ذلك ماروا ه الترمذى عن النبى – ﷺ – أنه قال : « من أصبح والآخرة أكبر همه جمع الله له شمله ، وجعل غناه فى قلبه ؛ وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له » .

وأصل ذلك فى قوله تعـالى : « وماخلقت الجن والإنس الا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتـين » .

سوق الحظوظ

الشاعر :

ابن الوردى : وهو زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبى الفوارس .

ولد بالمعرة سنة ٦٨٩ﻫ وتوفى بحلب سنة ٧٤٩ﻫ

شاعر ، مترسل ، صاحب مقامات ، نحوى ، فقيه ، قاض ، مؤرخ ، وتمتد معارفه إلى التأليف فى تعبير الرؤيا ، وفى خواص الأحجار ، وفى منطق الطير .

أدركته حرفة الأدب ، ومنعه الإباء والحياء من المصانعة ، فتحول إلى الشكوى من الزمان ، ونعى الألمعية والذكاء ، والاكتفاء بالمقسوم .

وأدبه انعكاس لمعارفه ، ومقاماته مشحونة بالبديع يتكلفه فى الجملة ، وكذلك شعره ، ومنه قوله مجنسا :

دهـرنا أمسى ضنينـا ... باللقـا حتى ضنينـا
ياليالى الوصـل عودى ... واجمعينـا أجمعينـا

وقوله قاصداً التورية فاقتبس العبارة العامية (على عينك ياتاجر) :

وتاجر شاهدت عشاقه ... والحـرب فيما بينهم دائر
قال : علام اقتتلوا هكذا ؟ ... قلت : على عينك ياتاجر

النص :

لاتحرصن على فضل ولا أدب ، ... فقد يضر الفتى علم وتحقيق
ولا تعد من العقال بينهم ، ... فإن كل قليل العقل مرزوق

والحظ أنفع من خط تزوقه ، فما يفيد قليل الحظ تزويق
والعلم يحسب من رزق الفتى، وله بكل متسع فى الفضل تضييق
أهل الفضائل والآداب قد كسدوا والجاهلون فقد قامت لهم سوق
والناس أعداء من سارت فضائله وإن تعمق قالوا عنه : زنديق

تحليل :

هذه دعوة استسلامية انهزامية ، الشاعر يدعو إلى عدم الحرص على الفضل والأدب والعلم ، ويحبذ الرضا بالحظ والمقسوم دون سعى . وبدا مقتنعا بدعوته فجعل يدعمها بالحجة والدليل ، ينتزعها من واقع ماهو وأمثاله فيه من الحرمان والضنك، ومن واقع ماعليه الجهال والأغبياء من النباهة والسعة .

ومن أدلته وحججه أن اشتغال الفتى بالعلم قد يضره ويصيبه بالكساد ، ويدفع السفهاء والجاهلين إلى اتهامه بالجنون ، وربما يعادونه ، وربما يتمادون فى معاداته فيقلبون عليه اعتقاده ، ويزعمون أنه زنديق ، فيجعلونه هدفا للعدوان .

واقتبس الشاعر من الحكمة السائرة (الناس أعداء ماجهلوا) قوله : (والناس أعداء من سارت فضائله) ، لأن عداوة الناس لما يجهلون تتسرب حتى تصيب معارف أهل الفضل لأنها مما يجهلون ، وتتسرب لتصيب أهل الفضل أنفسهم .

واعتمد الشاعر فى بعض شعره على البديع : البيت الثالث فيه تجنيس بين (الحظ) و (الخط) . ولم يخل بيت من المقابلة ينتزعها من أنماط السلوك البشرى ويضعها متواجهة ، فتبدو بديعة الشكل والدلالة ، وإن كانت - كما أوضحنا - منكفئة على اليأس من صلاح الحال ، والقنوط من مساعى العقلاء ، والقناعة بالهزيمة الاستسلام .

مناظرة الزنبق والورد

الشاعر :

صفي الدين الحلي : عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر ابن أبي العز بن سرايا الطائي الحلي .

ولد في (الحلة) من مدن الفرات سنة ٦٧٧هـ . وجاء إلى مصر سنة ٧٢٦هـ ، وأقام فيها فترة ؛ واتصل بالقاضي علاء الدين بن الأثير كاتب السر وبالسلطان الناصر قلاوون ، ومدحهما ، وبعد أن شاع ذكره رحل إلى بغداد . وتوفي عام ٧٥٠هـ .

له ديوان شعر كبير يربو على عشرة آلاف بيت . وهو يعد من صناع الشعر ، وممن نوعوا في الأغراض وفي الأوزان . ويتفاوت شعره بين الرقة والفخامة بحسب موضوعه ، فمن الرقة قوله في الربيع من قصيدة طويلة على هذا النسق :

ورد الربيع فمرحبا بوروده وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده

ومن الفخامة قوله في الفخر من قصيدة ضافية :

لمن الشواذب كالنعام الجفل كسيت جلالا من غبار القسطل

يبرزن في حلل العجاج عرائسا يحملن كل مدرع ومسربل[1]

---

(١) الشواذب : أي الخيل العظيمة . النعام الجفل : المسرعات . الجلال (بالكسر) جمع جل ما تلبسه الدابة صيانة لأرجلها . القسطل : الغبار المثار . العجاج : الغبار . المدرع : لابس الدرع . المسربل : لابس السربال وهو القميص والدرع أيضاً .

وقد فتن صفى الدين الحلى بفنون البديع ، وسلك لها سبيلين :

إحداهما : تأليفه فى البديع ، وله رسالتان : الأولى (الدر النفيس فى أجناس التجنيس) شرح فيها أنواع الجناس ومثل لها على نحو ماتجده فى كتب البديع . والرسالة الثانية (النتائج الالهية) وهى فى شرح قصيدة له بديعية فى مدح الرسول - عليه الصلاة والسلام - تشتمل على ١٥١ نوع بديعى .

السبيل الأخرى : صناعته الشعر البديعى - إن صح أن نسمى بهذا الاسم الشعر الذى يلح فيه الشاعر على البديع إلحاحا . وهذا مثال منه تتفكه به ، التزم فيه تصغير الكلمات :

نقيط من مسيك فى وريد   خويلك أو وشيم فى خديد
وذياك اللويمع فى الضحيا   وجيهك أم قمير فى سعيد

من قصيدة تبلغ أربعة وعشرين بيتاً ، التزم فيها تصغير الكلمات حتى سمجت [1] على أنه كان لديه الفراغ الذى ينفقه فى مثل هذه الألاعيب . ومن ألاعيبه أيضاً تحبيره رسالتين : إحداهما حروفها كلها مهملة أى غير منقوطة ، والأخرى تسمى (التوءمية) ، كل لفظين متتالين منها بينهما جناس على نحو ما ، كقوله : « عبده عنده وهو وهم وقد وفد مستجيرا مستخيرا حرمة حرمه ، وأحب واجب ثباته ببابه العالى الغالى ، بحيث يجيب نداه نداه ، فقد فقد أهلة أهله ، ولذة ولده ، ورجاله ورحاله ، وخيله وحيله ، ونسبه ونشبه »

النص :

قد نشر الزنبق أعلامه   وقال : كل الزهر فى خدمتى
لو لم أكن فى الحسن سلطانه   ما رفعت من دونه رايتى

---

(١) راجعها فى ديوانه وفى فوات الوفيات ١/٥٨٣

فقهقه الورد به ساخراً ... وقال : ماتحذر من سطوتى
وقال للسوسن : ماذا الذى ... يقوله الأشيب فى حضرتى ؟
فامتعص الزنبق من قوله ... وقال للأزهار : يارفقتى
يكون هذا الجيش بى محدقا ... ويضحك الورد على شيبتى

تحليل :

أجرى الشاعر حواراً صامتاً بين الزنبق ـ ذى اللون الأبيض ـ والورد ـ ذى اللون الأحمر ـ وما أكثر ماكان الأدباء يتخيلون مثل هذا الحوار فيما عرف بالمناظرات الخيالية ، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن نباتة المصرى ، وأخرى للقلقشندى ، وأخرى لابن بردالأصغر ، والمناظرة بين الورد والنرجس لأبى الحسن الماردينى ، والمناظرة بين القنديل والشمعدان لعبد الباقى اليمانى .

والمناظرات الأدبية فن أدبى يعتمد الجدال والنضال فى سبيل الغلب للرأى ، وهى امتداد لمنافرات الجاهليين ، ولمناقضات ومساجلات المتحزبين ومن إليهم فى العصر الإسلامى . ومنها ماتلبس بالخيال كالمناظرة التى عقدها الجاحظ فى كتابه (الحيوان) بين صاحب الكلب وصاحب الديك ، مما يحمل على الرأى بأن الجاحظ أول من أنشأ هذا اللون ، ثم أغرم به الأندلسيون فعقدوا المناظرات بين المدن .

وهذا اللون من الأدب ينشط فى فترات الترف ، إذ يجد المتفننون القول ذا سعة ؛ وينشط فى فترات الضعف حين يضيق بالناس مجال القول فيلجئون إليه كوسيلة للتنفيس عن ضيق صدورهم ، ويكون ما ظهر منه رموزاً لأمور مكتتمة .

والشاعر صفى الدين الحلى فى أبياته لم يقصد إلى الرمز ، ولكننا وجدالقول فى الزنبق والورد واسعا ، وما أيسر أن يطلع عليهما فى مصرأو فى الشام فيرى الزنبق ناشراً أعلامه ، مزهوا بقامته ، فخوراً بتاجه الفضى ، وحوله الزهر من كل لون ، فهو بينها يتطاول ويشمخ ويتعالى ، وينافس الورد فى حمرته الرائقة المعجبة ، والورد ـ بدوره ـ ينافسه المجد ويطاوله العرش على دولة الزهور .

وغير خاف عليك أن الشاعر أضفى على زهراته الحياة ، فجعل كلا من الزئبق والورد ناطقا ، متكلما ، يدرك الفخار والزهو ، ويحس الغيرة والألم ، ويتحيل الأسباب لما به يزدهى ويفتخر ، وايرد عن نفسه وعن جنسه عادية الخصومة .

وهذا التشخيص عرفه الأدب العربى ؛ مذ أنطق الشاعر الجاهلى الربع ، واستنطق الديار ، وساءلها عن الأهل والأحباب ، وأجابته بلسان الحال ، وحادث بعيره وحادثه بعيره ، وحاور فرسه فشكا إليه بعبرة وتحمحم ، وارتفع شأن هذا التشخيص فى البيئات الخصبة كالأندلس والشام ومصر ، لأن الطبيعة أوحت للأدباء بالنطق عن روعتها وجمالها وجلالها .

شاعر يندب حظه

الشاعر :

ابن نباتة المصرى[1] . واسمه جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد الحسن ابن صالح بن على بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب[2] بن نباتة ، الفارقى الجذامى المصرى .

ولد سنة ٦٨٦هـ فى مصر فى حى (زقاق القناديل) بالقاهرة ، وكان هذا الحى ملاصقا لجامع عمرو بن العاص من الجهة البحرية ، وكان موطناً للأشراف والعلية .

كان ابن نباتة أول أمره ذا مال ويسار ، فأنفق وأسرف ، فآل إلى الضنك والعدم فعاش ضعيفاً مستكيناً ، وآثر السلامة ، وخاف المغامرة ، ورضى بنصيبه مما كان يصله به السلطان المؤيد إسماعيل بن على صاحب حماة وأبناؤه من بعده ، وكان يكتب لهم بدمشق .

وحذا ابن نباتة فى نثره حذو القاضى الفاضل ، وأغرق فى الصنعة البديعية فى شعره ، وتفاوتت معانيه ، فكان له منها المعانى السرية كقوله :

وحمى العواصم رأيه ، ولطالما قعد الحسام وقامت الآراء

---

(١) ابن نباتة المصرى (بضم النون من نباتة) ، وابن نباتة السعدى (بفتح النون)

(٢) والخطيب هو أبو يحيى عبد الرحيم بن نباتة ، كان خطيب حلب ، واجتمع مع المتنبي الشاعر فى صحبة سيف الدولة الحمدانى .

والمعانى السوقية كقوله :

أوحشه الغيث الذى قد نأى وجاهه - والله - فى وقته

ووقع فى شعره الخطأ اللغوى والضرورة الشعرية ، ومع ذلك كان ابن نباتة يحب شعره ويتباهى به حتى لا تكاد تخلو قصيدة له من هذا ، كقوله :

من مبلغ العرب عن شعرى ودولته أن ابن عبـاد باق وابن زيدونا
حبرتها فيه زهراء المعاطف من أعلى وأنفس مايهدى المجيدونا
إذا رأيت قوافيها وطلعته فقد رأت مقلتاك البحر والنونا
كأن ألفاظها فى سمع حسدها كواكب الرجم يحرقن الشياطينا

ولابن نباتة (سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون) ، كتاب شرح فيه الرسالة الهزلية لابن زيدون ، فأبدع ، ودل على سعة اطلاعه ، ومحصوله من الأدب والتاريخ .

وله غير هذا الكتاب من المؤلفات : مطلع الفوائد ومجمع الفرائد فى الأدب، والفاضل من إنشاء الفاضل ، وفرائد السلوك فى مصايد الملوك ، والقطر النباتى ، وسوق الرقيق ، ومناظرة السيف والقلم .

ودارت الأيام بابن نباتة ، وآب إلى القاهرة ، ليعيش بقية عمره مخلطا ، ويلقى بارئه سنة ٧٦٨هـ .

النص

وقالوا : فلان رم بالشعر عيشه فياليت أنى ميت لست أشعر
تصرم أقصى العمر أدعوك للمنى وأرقب آفاق الرجاء ، وأنظر
وأصبر ، والأيام تقتلنى ، أسى فها أنا فى الدنيا قتيل مصبر
أرى دون حظى مسلكا متوعرا إذا ماجرت فيه المنى تتعثر

ويحمر دمعى حين تصفر وجنتى ... فألبس ثوب الهم وهو مشهر
ولاذنب لى عند الزمان ـ كما ترى ـ ... سوى كلم ، كالروض ، تبهى وتبهر

تحليل :

هذا شاعر يندب حظه : حظ الأديب ، عندما فقد الأمل فى أن تبتسم الدنيا له، ونفض يده من تقدير الناس لشعره ، فهو يستدعى الموت ، لينهى فكره فى نتائج مساعيه ، وهو يألم لأنه قضى عمره مناضلا يتمنى الحياة ويرجو أن يطيف به طائف الأمل ، واصطبر حتى قارب النهاية ولم يحقق أمنية ولا رجاء ، قتله الانتظار ، وهده الصبر ، فعاش جسما بلا روح ، تعثرت أمانيه ، وتوعرت مسالكه ، فانهد كيانه ، وانحطم عوده ، وانهزم روح النضال فى داخله ، وانعكست على ظاهره آثار همومه ، التى امتصت دمه ، واحتلبت دمعه ، فبدا شاحب الوجنة ، محمر العين . ولم يكن له من ذنب إلا أنه أديب صناعته الكلمة . وما أبهاها وما أبهرها ـ ولكن أين من يقدرها .

وحق للشاعر أن يندب حظه ، وقد طوف فى الآفاق ، فما أعقب إلا الإفلاس والندامة . اقرأ له :

ياسائلى بدمشق عن أحوالى ... قف واستمع عن سيرة البطال
ودع استماع تغزلى وتعشقى ... ما ذا زمان العشق والإغزال
طول النهار لباب ذا من باب ذا ... أسعى ـ لعمر أبيك ـ سعى ظلال
لا حظ لى فى ذاك إلا أنه ... قد خف من طول المسير طحالى
أسعى على شغل وأترك خلوة ... فأعود لا علمى ولا أعمالى
وإذا تغير مورد وقصدت لى ... صحبا وجدت الصحب مثل الآل

واقرأ له :

شهور وصل كساعات لنا انقرضت ... بمن أحب ، وأعوام كأيام

ولت كأنى منها كنت فى سنة ثم انبرت لى أيام كأعوام
مقلقلا ، بيد الأيام ، مضطربا ، كأنما استقسمت منى بأزلام
قد حرمت حالتى طيب الحياة بها كأن طيب حياتى طيب إحرام
هى المقادير لاتنفك مقدمة وللحجى خطرات ذات إحجام

واقرأ قوله :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتباً وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فياعجبا منى ثروة لفظ وافتقار يد

الشاعر والدولاب

الشاعر :

نور الدين علي بن محمد العسيلي المصري .

معدود من فضـــلاء مصر وأعيانها وظرفائها في القرن العاشر الهجري . تلقى العلم بالجامع الأزهر ، واشتغل بالتأليف والتدريس فنبه واشتهر ، ثم تقلب به الزمان ، فخالط الدهماء ، وغلبه الكيف مع تقدم العمر ، فصار إلى البؤس والشقاء والحرمان ، إلى أن انتشله الاستاذ أبو المواهب البكري إمام المشيخة الصوفية ، فابتسمت الدنيا للعسيلي ، واستأنف حياة الدعة ، حتى توفي سنة ٩٩٤هـ .

النص :

ودولاب مررت به سحيراً   يئن كأنة الصب المروع
غدت أضلاعه تنهد سقما   ويفنى جسمه صب الدموع
يدور كمن أضل الإلف منه   وذاق تشتت الشمل الجميع
فقلت له : فديتك من كئيب   كساه الهم أثواب الخشوع
علام أراك تبكي كل وقت   وتهتف في المنازل والربوع

فقد قربت لى حزناً بعيداً ... ونحانى نواحك عن هجوعى
فقال : أما علمت بأن مثلى ... خليق بالصبابة والولوع
فإنى كنت فى روض رفيعا ... أبيت من الأزاهر فى جموع
ولى فى المنتمى أعراق صدق ... أصول أنجبت أزكى فروع
إذا ماالورد قابلنى وحيا ... تضرج وجنتاه بالنجيع
ويصفر البهار لدى خوفا ... كصفرة عاشق صب مروع
وإن قصدت بنو الآداب ربعى ... أجود من النثار على الجميع
فقيضنى الشقاء إلى غبى ... شديد البطش جبار قطوع
فألقانى على رأسى صريعاً ... وأنت مشاهد حال الصريع
وقطع لطف أوصالى بعنف ... وصار يدق عظمى فى ضلوعى
فصرت أرى الذى قد كان دونى ... أناف ، وصار ذا شأو رفيع
على قلبى أدور عنا ، وأبكى ... عليه أسى ، كمقلات هلوع
فكيف ألام إن أدمنت نوحى ... وجدت بدمع الطرف الهموع

وحالى ناصح أبناء جنسى ... فلا تغتر بالجد المنيع
فإن الدهر كالصياد كيدا ... وأسباب القضا شرك الوقوع

المفردات :

الدولاب : الساقية : النجيع : الدم على سبيل التشبيه . البهار : كل نبت طيب الرائحة : النثار : بمعنى المنثور . **قطوع** : صيغة مبالغة للقاطع وهو الذى لا يصل رحمه . أناف : أشرف وزاد . المقلات : المرأة لا يعيش لها ولد وتسمى بها أيضاً التى تضع واحداً ثم لا تحمل . الطرف الهموع : الكثير الدموع .

تحليل :

ما أظن الشاعر قصد إلى وصف الدولاب قصداً ، والذى أظنه أنه اتخذ من الحديث إلى الدولاب وعنه وشيجة للقول فى غدر الزمان وتقلب الأيام وخداع الدهر وكذب الآمال .

والصورة التى عرضها الشاعر صورة رمزية لحياة الدعة والنعمة والزهو بدلت شقوة وبؤسى وتطامنا .

وهـذا هو الدولاب يدور - أو يدار - ويصدر عنه ذلك الصوت الرخيم الحزين الذى عهدناه ، فيتصوره الشاعر صبا عاشقا ولهان روعه فقد الحبيب وهجرانه ، فانكفأ يبكى ولا جدوى من بكائه ، ويئن وليس له من أنينه غير اللوعة والحسرة وسوء الحال وضمور الأضلاع وسقام البدن .

ويسائل الشاعر الدولاب عما به راثيا له وعاطفا عليه ، والشاعر إن أردت يرثى لنفسه ويعطف على نفسه ويريد أن يتحدث عن نفسه ، ويسترجع الشاعر ذو الخيال ماضى الدولاب ، وإن شئت فهو يسترجع ماضى نفسه تمثيلا ، فيحكى الدولاب فى فتون وفتور أنه كان - قبل أن يمزق هذا التمزق - ينتمى إلى شجر البستان ، ويتعالى على الورد والبهار ، ويلقى التحية من سائر الأشجار ، وأن ربعه كان محط الرحال ، وطالما قصده ذوو الأدب ، للاستلهام والطرب ، ولكنه وقع فى ملك رجل غبى باطش جبار قطوع ، سولت له نفسه الشرير أن ينقله من صنعة الطبيعة إلى صنعة الإنسان ، فنجره دولابا ، فصار إلى حال الذلة والمهانة والخسف ، وفاقه الذى قد كان فى سالف الزمان دونه ، فمن أجل هذا يبكى كما تبكى المقلات ولدها ، وتركبه الأحزان .

وكنا نود أن يقف الشاعر عند هـذا الحد ، فلا ينشىء بيتيه الأخيرين ، لأنهما جاءا عظة صريحة ، والوعظ يتضاءل بالشعر إلى النثرية ، ويمنعه التحليق فى أجواز الخيال ، ويحرمه التهويم فى سماء الفن ، وإن أتاح له قدراً موفوراً من الانطلاق على دروب الهداية والرشاد .

صفة اليراع

الكاتب :

على الحنائى - أو على بن الحنائى بن أمر الله الحميدى -

تحدث عنه الشهاب الخفاجى فى (ريحانة الألبا) فى القسم الخاص برحلته إلى بلاد الروم ، فى عهد السلطان مراد الخليفة العثمانى . وقد تمت هذه الرحلة بين أواخر القرن العاشر الهجرى وأوائل القرن الحادى عشر . وقد أفاد الشهاب أن على الحنائى شاعر عالى القدر وقاض فاضل . ومن النظر فيما تمثل به الشهاب من أشعاره يتعين الحكم بأنه شاعر بديعى ، يصرف الكلمة تصريفا بديعيا متنوعا .

وقرأنا له فى ريحانة الألبا رسالتين طويلتين : إحداهما فى القلم ، والأخرى فى السيف ، وفى كلتا الرسالتين سبح خيال الكاتب سبحا طويلا ، إلا أنه كان خيالا تقريريا ، يمتح من معين التشبيهات المألوفة ، والاستعارات المكشوفة ، إلا ما ندر . كذلك جاءت كلتا الرسالتين شاهداً قويا على إصرار الكاتب على السجع والجناس والطباق وسائر البديع ، ولو التوت فى هذا السبيل عبارته وسمج تركيبه .

النص :

نجتزىء من رسالته فى صفة القلم هذا القدر :

(ياسائلى عن صفة القلم ، إنه فى العلم علم .

علم يتراءى فى بيداء النور ، « والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور » .

يعجز عن بيان غرر وصفه بنان الأفهـــام ، « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام » .

ذو اللسانين واللسن ، والبيان العذب الحسن

فقيه فائق سرح فى رياض الهمة ؛ فاقتطف شقائق النعمان ، حكيم حاذق جلس على خوان الحكمة ، فالتقم حقائق لقمان .

إذا أنشأ أغرب ، وإذا أنشد أطرب ، وإذا أعجم أعرب .
وإذا أشكل رفع الإشكال ، وإذا قيد أطلق العقول من المقال .
يترجم عن الوحى والإلهام ، وإذا رفعه الإبهام رفع الإبهام .
على منبر الأصابع خطيب مصـــقع ، ألف تراه تارة فى الدواة وأخرى على الإصبع .

بث مصونات السرائر فأشير إليه بالسيف والقطع ، وسرق مخزونات الضمائر فحكم عليه بالقطع .

يصبر مثل أيوب على البوسى ، ويصير كليماً إذا مر على رأسه موسى .
غريب هجر هنده وواسطه ، وصار بين الهند والروم واسطة .
يقطع الفيافى ، وهو رجلان حافى .
تارة يخرج الفرائد من البحور ، ويجعلها قلائد بيض النحور .
سفاح ذو خلاعة ومجون ، رشيد أمين إلا أن طغيانه غير مأمون (١) .
شاد إذا غنى شفى المفترد ، كأنه أوتى مزمارا من مزامير آل داود .
إذا سح سحاب كماله ، ترى سحبان فى روض الفصاحة باقلا ، وإذا فاض معين أفضاله ، ترى معنا لحوض السماحة مادرا باخلا (٢) .

إذا ألقى الدروس ، يحيى ربوع العلوم بعد الدروس .
وإذا تعب براحته قلم الفتيا ، تصل إلى كل راحة الدنيا ، وتعلو كلمة الله العليا .
يسعى قدم العلم فى مدار محاسنه وهو كسير ، وينقلب بصر البصيرة خاسئا وهو حسير) .

---

(١) فيها إشارة إلى أربعة الخلفاء العباسيين .

(٢) يضرب المثل بسحبان وائل فى الفصاحة ، وباقل فى العى ، ومعن بن أوس فى الجود ، ومادر فى اللؤم .

لأهل الطريق

المرشد :

هو الإمام الشعرانى - أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى .

نجلته أمه فى (قلقشندة) - من قرى القليوبية - سنة ٨٩٨ ﻫ ، وانتقلت به بعد أربعين يوما من ولادته إلى قرية أبيه : (ساقية أبى شعرة) - من قرى المنوفية - وإليها نسب . وتوفى أبوه حينما بلغ العاشرة ، وكان قد حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادىء العلوم . ثم انتقل به أخوه عبد القادر إلى القاهرة ، فانفتح على علم كثير فى الفسطاط - وقيل فى الأزهر - وتخرج على الشيخ على الشـــونى فى علوم الدين ، والشيخ على الخواص فى التصوف ، وتنقل بين (مسجد الغمرى) معلما وشارحا ، ومدرسة (أم خوند) مريدا ومرشداً . ومازال هــكذا حتى توفى سنة ٩٧٢ ﻫ .

ويعد الشعرانى من المجددين فى الفقه وفى التصوف ؛ جدد فى الفقه بكتابه (الميزان) الذى جمع فيه أقوال الأئمة الأربعة وحاول التوفيق بينها ، وجدد فى التصوف بكتابه (الأنوار القدسية) الذى جمع فيه خلاصة العقائد الصوفية ، وشرح فيه آداب العبودية لرب البرية .

وله كتاب (لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار) - اشتهر باسم طبقات الشعرانى الكبرى - وهو من كتب التراجم ، ترجم فيه للصالحين من أبى بكر الصـــديق حتى عهده .

وله كتب أخر فى علوم الدين واللغة والطريق .

النص :

من كتابه (الأنوار فى صحبة الأخيار) :

(اعلم - وفقنى الله وإياك إلى مايحب - أن آداب القوم لاتنحصر ، لأنها مجموع مافى الكتب الإلهية ، والأخبار النبوية ، والآثار الصحابية والسلفية . ولكن نذكر لك شيئا من آدابهم ، تبركا ، وفتحا للباب ، فنقول - وبالله التوفيق - :

من آداب القوم : أن يفروا فى جميع الشدائد إلى الله - تعالى - قبل جميع الخلق لعلمهم أن بيده - تبارك وتعالى - ملكوت كل شىء . بخلاف غيرهم ، فإنهم لا يرجعون الى الله الا بعد الوقوف على خلقه .

ومن آدابهم : جمع الحواس والقلب حال العمل . وقد ورد فى بعض الكتب الالهية : يقول الله - تعالى - للملائكة الكرام الكاتبين : « اكتبوا عمل عبدى فلان ، واكتبوا أين كان قلبه حال العمل ، ليأخذ ثرابه بمن كان قلبه حاضرا عنده » . ومن كلام سيدى على الخواص : « كل عمل لم يحضر العبد فيه مع ربه - تعالى - فهو كالميتة » ، وهو بالنفاق أشبه ، وذلك لأنه يوهم الناس أنه مع الله حال مناجاته وهو مع الخلق . وقد طالت الطريق على الناس ، لغفلتهم عن ذلك ، فحجبوا بالأعمال عن المعمول له . ولو أنهم لاحظوا المعمول له لاشتغلوا به .

ومن آدابهم : لايطلبون بعباداتهم مقاما ، أو حالا ، أو تقريبا من الحضرة الالهية[1] ، فقد قالوا : من خدم الله - تعالى - لطلب مقام فقد طلب قطيعة ، ومن خدمه لطلب الثواب أو خوف من عقاب فقد أبدى طمعه وأظهر خسته . وقالوا :

---

(١) من اصطلاحات الصوفية : المقام وهو استيفاء حقوق المراسم على التمام . والحال وهى ما يرد على القلب من غير تعهد ولا اجتلاب . والقرب وهو القيام بالطاعة أو حقيقة « قاب قوسين » .

أبغض الخلق إلى الله من تملق إليه فى الأسحار ، يطلب قربه - تعالى - بذلك . وقالوا : افعلوا ما أمركم به الشرع إن استطعتم ، ولكن من حيث مشروعيته والأمر به ، لا من حيث علة أخرى . واتركوا العلل كلها فى جميع أعمالكم وأحوالكم ، ولا تنظروا إلى ثواب ، فمن نظر إلى ثواب فى أعماله عاجلا أو آجلا فقد خرج عن أوصاف العبودية الكاملة ، التى لا ثواب لها إلا وجه الحق - عز وجل -

ومن آدابهم : تفتيش أعضائهم الظاهرة والباطنة صباحا ومساء ، هل حفظت حدود الله التى حدها لها أو تعدت ؟ ، وهل قامت بما أمرت به من غض البصر وحفظ اللسان والآذان والقلب وغير ذلك على وجه الاخلاص - أو لم تقم ؟ . فإن رأوا جارحة من جوارحهم أطاعت شكروا الله - تعالى - ولم يروا نفوسهم أهلا لذلك ، وإن رأوها تلطخت بشىء من المعاصى أخذوا فى الاستغفار والنوم ، ثم يشكرون الله - تعالى - إذ لم يقدر عليهم أكثر من تلك المعصية ، ولم يبتل جوارحهم التى مرضت حال عصيانها ، فإن كل عضو مستحق نزول البلاء .

ومن آدابهم : لا يغفلون عن تفتيش باطنهم ، فإن الأخلاق الردية كامنة فى العبد . ومعلوم أن الفقراء إذا ترقوا فى المقامات كان وقوعهم فى المعاصى الظاهرة معدوما غالبا ، فيقنع أحدهم بذلك ، وينسى تفتيش باطنه ، وهو قصور عن درجة أهل العرفان . ومن ظن أن الأخلاق الردية زالت عنه فقد وهم ، قال - تعالى - : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » - فلم يقل : (ومن يزل شح نفسه) - بل أبقى الشح فيها ، إلا أنه يوقى العمل بذلك بعبادته لله - تعالى - ومن كلام الشيخ أفضل الدين : « الله قد جعل فى طينة الآدميين سائر الأضداد ، فجميع الأخلاق الحميدة والذميمة تشرق وتغرب فى ذواتهم » ، ولكن مادامت العناية الربانية تحف العبد فجميع الأخلاق الذميمة خامدة متعطلة ، فإذا تخلفت عنه العناية تحركت للاستعمال ، وخمدت أخلاقه الحسنة . ثم لا يخفى أن طينة الأنبياء — عليهم

الصلاة والسلام — قد طهرها الله من سائر الرذائل بسابق العناية ، فافهم ، وإياك والغلط .

ومن آدابهم : عدم موافقتهم للوعد ، فلا يعدون أحداً بوعد إلا فى النادر ، لعلمهم أن صدق الوعد لايكون إلا للأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — لعصمتهم. وأما غيرهم فربما وعد وأخلف ، فيصير فيه خصلة من النفاق .

ومن آدابهم : لايطلبون ألا يكون لهم حاسد ، فإن الحكم الوجودى اقتضى مقابلة النعم بالحسد ، فمن طلب ألا يكون له حاسد فقد طلب ألا تكون له نعمة .

ومن آدابهم : إذا ذكروا ذنوبهم لايقولون : « لاحول ولا قوة إلا بالله » ، لما فى ذلك من رائحة الحجة على الله - تعالى - بل يقولون: « ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » - ومع الأفراد : (رب ظلمت نفسى فاغفر لى أنت الغفور الرحيم) .

ومن آدابهم : لايقولون : « نأنس بالله - تعالى » ، فإن الإنسان لا يأنس إلا بجنسه ، والحق - تعالى - ليس بينه وبين عباده مجانسة بوجه من الوجوه . فإذا رأيت فى كلام أحد من القوم أنه يأنس بالله - تعالى - فاعلم أنه غير محقق ، ولو حقق لوجد أنسه بما من الله - تعالى - لا بالله - تعالى - ، لانتفاء المجانسة [1] .

---

(١) التحقيق طلب الحقيقة ، والحقيقة سلب آثار أوصافك عنه بأوصافه .

ومن آدابهم : لايقولون ، « نطلب الله » ، إذ الطلب لايكون إلا لمفقود ، والله ـ تعالى ـ موجود وواجب الوجود ، ولايطلب دركه ، لأنه لاغاية له . وإنما يقولون ، « نطلب الطريق إلى معرفة الله » .

ومن آدابهم : لايستعيذون بالله من شيء ، وإنما يستعيذون من شره . وكذلك لايقولون : « اللهم أغننا عن جميع خلقك » ، وإنما يقولون : (أغننا عن شرار خلقك) .

ومن آدابهم : لايعتمدون على كسبهم ، فإن الاعتماد على الكسب شرك بالله ـ عز وجل ـ

ومن آدابهم : قلة التحدث على الأكل ، لأنهم جالسون حقيقة على مائدة الله ـ تعالى ـ والله ناظر إليهم وإلى آدابهم وآثارهم وشكرهم له ـ عز وجل ـ

ومن آدابهم : عدم الانتصار لنفسهم ، فان الانتصار للنفس من الامور التى كلها تعب ، ومن سلم الأمر لمولاه نصره من غير عشيرة ولا أهل ، ومن كلامهم: اذا انتصر الصوفى لنفسه وأجاب عنها فهو والتراب سواء .

ومن آدابهم : تقديم من مروءته من حيث ايمانه على من مروءته من حيث نفسه ، وميزان ذلك : النظر فى أمر العبد ، فمن كان إقدامه على الأهوال فى دين الله وفى غيردين الله على حد سواء فذلك من المروءة النفسانية ، ومن كان اقدامه على الأهوال فى دين الله فقط فذلك من المروءة الايمانية

ومن آدابهم : يشهدون الكمال فى صاحبهم والنقص فى أنفسهم . ومن شهد ذلك كره العزلة عن الناس الا لغرض شرعى آخر ، كأن يخشى أن يحصل لهم منه شىء يتضررون به .

ومن آدابهم : يشهدون على الدوام أن الله – تعالى – أرحم بهم منهم ، ولذلك لا يقع منهم قنوط من رحمة الله – تعالى – فى وقت من الأوقات) .

تجربة فى العزة والذلة

الشاعر :

أحمد العناياتى ـ واسمه أحمد بن أبى العنايات بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الكريم. أصله من نابلس ، وولد بمكة المكرمة بعد رحيل أبيه إليها ، وفى نحو الستين من عمره رحل هو إلى الشام ، حيث استقر فى دمشق ، إلى أن توفى سنة ١٠١٤هـ فى سن الثمانين .

قالوا : لم يتزوج ، ولم يتخذ مسكناً ، ولم يسع فى غنى وجاه . ومال إلى الزهادة والقناعة ، وألف الخمول ، وعرف برثاثة الهيئة .

النص :

إذا لم أعز فمن ذا يعز ... وفقرى وقنعى كنز وحرز
لبست من اليأس فى الناس ثوبا ... عليه من العقل والفضل طرز
ولست أرى الذل إلا إذا كا ... ن فى الحب . والذل فى الحب عز
ومثلى حر ، غناه عباءة ... إذا استعبد الناس خز وبز
وسيان من حب أو من قلى ... ومن راح يمدح أو راح يهزو

تحليل :

هذا شاعر يجد العزة فى فقره وقناعته ، وفى غل يده أن تمتد إلى كلاب البشرية ، فيصلوه ، فيظل عبيد إحسانهم وأسير برهم ومعروفهم ، ويلحقه العار من ذلك . وبلغ به الريب فى صـــلاحهم وصلاح ما يأتى من قبلهم أنه يئس منهم يأسا أملاه العقل .

ويستطرد فيما يشبه الاحتراس ، فيقبل المذلة فى الحب وحده ، ويعتدها عزة ، لأن شريعة الحب أن يخضع المحب للمحبوب ويتطامن له .

ويعود إلى نسق كلامه ، وإنه ليرى نفسه حرا ، ويرى الحرية فيما هو فيه ؛ ألا تكفيه عباءة تستر بدنه ، وإنه لراض بها ، وإنها لتمثل الغنى - غنى النفس - فى مقابل عبودية المستعبدين للخز والبز . وعلى هذا لم يعد ثم وجه لأن يبالى الناس - هؤلاء الأرقاء - ولا أن يعير سلوكهم أدنى اهتمام ، فسيان عنده المحب والمبغض ، وسواء لديه المادح والقادح .

ومن البين الواضح أن الشاعر ينظر نظرة اعتبارية للعزة والذلة والحرية والعبودية ، ويغلفها بشعوره وإحساسه وتقديره الخاص . وهذا - من الوجهة الوجدانية - حق وصدق ، لأن المتفنن يمتح من داخل نفسه ، ويلون الموجودات بلون إحساسه : ويراها من خلال تجربته .

صلوات فى محراب الحب

الشاعر :

بدر الدين البوريني – حسن بن محمد بن محمد بن حسن البوريني الشافعي .

ولد فى صفورية بالشام سنة ٩٦٣ هـ ، وتنقل بين القدس ودمشق وغيرهما ، مشتغلا بالتدريس والوعظ فى المدارس والمساجد . وعرف بالذكاء وطلاقة اللسان والفكاهة . . توفى سنة ١٠٢٤ هـ فى دمشق .

النص :

إلهى – أدم حاكم الحب فينا   مطاعا ، وكل البرايا أسارى
إلهى – وزد ذلك القد لينا ،   وأشرب سقيم الجفون العقارا
إلهى – على ضعف أهل الهوى   أنل لحظه فى القلوب اقتدارا
إلهى – جنود الهوى أعطها   على قوة الصابرين انتصارا
إلهى – على الحب ألقيت صبرا   وعن حسنه ما أطقت اصطبارا
إلهى – أجبت رسول الهوى   ولم آت منذ دعانى اختيارا
إلهى – رضيت بما ترتضى   بسرى ، وسلمت أمرى جهارا
إلهى – لى الجبر فيما ترى ،   وإن ظنه العاذلون انكسارا
إلهى – أعد ليل هجرانه   بصبح الوفا والتلاقى نهارا

تحليل :

يستديم الشاعر الحب وسطوته وانتصاره ، ويستزيد المحبوب لين قد ، وفتور جفن ، واقتدار لحظ على إصابة القلوب .. ويعلن راية التسليم والانكسار

مجبرا غـير مختار ، وتتبدد أطماعه وتتلاشى رغائبه إلا من شيء واحد هو إنهاء الهجران واستئناف الوصال وعودة الوفاء .

وهذه الصور التى صب فيها الشاعر فكرته صور مطروقة ، وهذه التشابيه التى لونت معانيه تشابيه مسبوقة ، ولـكن الإطار العام هو الذى يبدو طريفا ، ذلك أنه نقل الكلام من المناجاة إلى الغزل ، وهو أسلوب من أساليب الاحتذاء سموه (نقل الكلام من طريق إلى آخر) . والمناجاة معهودة فى الصلاة والدعاء والاستغفار والتوبة ، حولها الشاعر إلى الغزل ، فأطرب ، وأعجب .

مصر الجريحة

الشاعر :

بهاء الدين العاملي ـ محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي .

ولد في بعلبك بالشام سنة ٩٥٣ هـ . وانتقل به أبوه إلى فارس ، فتلقى فيها العلم ، وقربه السلطان عباس شاه ، واتخذه مشيرا ، فكان لايصدر إلا عن رأيه ، ولا يبرم أمراً دونه .

وأغرم بالأسفـــار ، فتنقل مابين مصر والقدس ودمشق ،أصبهان ، حتى توفى سنة ١٠٣١ هـ .

ويعد العاملي من غـــلاة المتشيعين للبيت العلوى ، غلوا يذكرنا بالكميت ابن زيد الأسدى والسيد الحميرى .

كما يعد العاملي من ذوى النبوغ فى كثير من العلوم والفنون والآداب ـ يدلك على هذا كتابه (الكشكول) ، وهو شذور من الأدب ، والشعر ، والأمثال ، والفلسفة ، والحكمة ، والطبيعة ، والفلك ، والجبر ، والهنـــدسة ، والطب ، والتصوف .

مناسبة الشعر .

فى قصيدة مدح بها العاملي الأستاذ أبا المواهب البكرى ، وكلاهما على مذهب المحبة للبيت العلوى .

الشعر :

يا مصر ـ سقياً لك من جنة قطوفهـــا يانعة دانيـــه

ترابهـا كالتبر فى لطفه ، وماؤها كالفضة الصـــافيه
قد أخجل المسك نسيم لها ، وزهرها قد أرخص الغاليه
دقيقة أصناف أوصافها ، وما لهـــا فى حسنها ثانيه
منذ أنخت الركب فى أرضها أنسيت أصحابى وأحبابيه
فيـا حماها الله من روضة ، بهجتهـا كافيـــة شـافيه
فيها شفا القلب ، وأطيارها بنغمة القـانون كالزاريه
من شاء أن يحيا سعيداً بها منعما فى عيشة راضيـــه
فليدع العلم وأصحــــابه ، وليجعل الجهل له غاشيـــه
والطب والمنطق فى جانب ، والنحو والتفسير فى زاويه
وليترك الدرس وتدريسه ، والمتن والشرح مع الحاشيه
إلام - يا دهر - وحق متى تشقى بأيامك أياميـــه
تحقق الآمـال مستعطفا وتوقع النقص بآماليـــه
وهكذا تفعل فى كل ذى فضيـلة ، أوهمة عاليـه
فإن تكن تحسبنى منهم فهى — لعمرى — ظنة واهيه
دع عنك تعذيبى وإلا فأشـ . . . ـكوك إلى ذى الحضرة الساميه

تحليل :

أولا - يمدح مصر ، ويطرى طبيعتها ، ويعدها فريدة فى حسنها ، فهى يانعة الثمر ، لطيفة الترب ، صافية المـاء ، بليلة النسيم ، معطرة الجو ، ناغمة الطير .

وثانياً - ينعى على الهيئة الاجتماعية فى مصر استنامتها إلى الجهالة والجهل ، فمن شاء أن يحيا سعيـــداً بها فليدع العلم جانباً ، ولا يشغل به نفسه ، وليجار الناس فى جهالتهم .

وثالثاً - يبكى قدره الذى ساقه إلى تلك الهيئة الاجتماعية ، فانحدرت بمن

كانوا فى مثل همته العالية ، وأطاحت بآمالهم وأمانيهم ، وصيرتهم إلى التعاسة والشقاء

ورابعاً - ينسلخ من هؤلاء الذين شقوا بمجتمعهم ، إلا واحدا هو ممدوحه ، وينفى عن نفسه أن يكون واحداً من هؤلاء الأشقياء . وهذا يعنى أنه يهدد بالرحيل عن مصر ، انفلاتاً من الهون والضيم والقهر .

* *

وبعـــد

فهذا شاعر آخر — بعد المتنبى الذى قصد كافور الإخشيدى — يعيب الهيئة الاجتماعية فى مصر ويذم المصريين ويعدهم أشقياء بما صاروا إليه من الخمول . وكلا الشاعرين اكتفى بما رآه من ظواهر السلوك وعلاقة المحكوم بالحاكم ، ولم يتعمق أسباب هذه الظواهر ، وكلاهما تناسى أو نسى أن الحاكم كان أجنبياً ، وأنه فرض إرادته وجهله على المجتمع المصرى ، ويشهد التاريخ أن مصر لم تكن فى هذا بدعاً، بل كانت على الرغم من هذا أكثر استنارة ، وأقل استنامة واضمحلالا .

نهاية طاغية

الاديب :

الشهاب الخفاجي - شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري .

من (سرياقوس) إحدى قرى القليوبية . ولد سنة ٩٧٧ هـ ، وتخرج في الأدب والعربية والفقه والحديث والرياضيات والطب ، على أبيه ، وخاله أبي بكر الشنواني، وغيرهما من أشياخ العصر ، في مصر والحرمين والقسطنطينية .

كان الشهاب كثير الرحلة والأسفار . وفي رحلتيه إلى بلاد الروم كان يولى القضاء ... وانتهى به الأمر إلى الاستقرار في مصر ، فأقام يؤلف ويملي وينشىء ، حتى جاوزت مصنفاته العشرين في مختلف الآداب والفنون . ومن أشهرها كتابه « ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا » ضمنه تراجم الأدباء في عصره من الشام والمغرب ومصر والروم ، ووشحه بكثير من شعره وعدة مقامات من صناعته وبحوث وفوائد أدبية وبلاغية ، كما ترجم فيه لنفسه . ومن هذه الكتب كتابه « شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل » ، وكتابه « طراز المجالس » وفيه مباحث في التفسير والنحو والأصول ، وكتابه « عناية القاضي وكفاية الراضي » وهو حاشية على تفسير القاضي البيضاوي ، و « شرح درة الغواص » للحريري .

وتوفي الشهاب سنة ١٠٦٩ هـ .

مناسبة النص :

رحل الشهاب الخفاجي إلى بلاد الروم رحلته الثانية في القرن الحادي عشر الهجري ، في عهد السلطان مراد ، ولم يعجبه ما آلت إليه القسطنطينية - حاضرة الخلافة العثمانية - من شيوع الفساد وغلبة الجهل وتفاقم الأمر ، فدل على ذلك

ناصحا ، ولكن نصيحته انقلبت وبالا عليه ، فعزلوه عن منصبه ، وأمروه بالخروج.

وتركه يحكي لنا حال الدولة في عهد هذا السلطان وما آل إليه أمرها وأمره ـ نقلا عن كتابه «ريحانة الألبا ـ ج ٢ ص ٢٩٩» .

النص :

« اعلم أن قسطنطينية بها حصون عالية البنيان ، محفوفة بالبساتين الزاهية والجنان ، والحب ذى العصف والريحان ، والأوصاف التى تمزق برود الإمكان ؛ وقصور عالية البناء ، فيها أناس على مراتب الهمم مضمخة بعبير الثناء ، يفيض منها مياه الكرم ، وتجعل بشائر البشر للجود أتم سلم . وحولها أنهار جارية ، ومعادن بأنواع الجواهر حالية . ذات غور وأخاريد ، وأرحام حاملة أطفال الفلذات والمواليد . تنبت اللجين والنضـــار ، وتبعث خواتيم الله فى أرضه لأخذ كل درهم ودينار .

إلا أن بها أسداً ضاريا غير مقلم الأظفار ، يمنع يد كل جان من قطف تلك الأزهار ، والتفكه بما فى جنانها من لذيذ الثمار ، ويحمى من بتلك المساكن ، من أن يحوم حول جواهر المعادن . إلا إذا بحثت فرصة لبعض شطارها ، على حين غفلة من الأسد إذا ذهب لبعض أقطارها ، إذا رام اقتناص الصيد أو ورد نمير أنهـــارها ، فيختلس من تلك الجواهر ، ويقتطف من أيادى الروض غض الثمر والأزاهر .

فبينماهم على تلك الحال ، واقفين بين الآمال والأهوال ، رجفت الراجفة ، وجاءت سحابة تسوقها ريح عاصفة ، فيها وعيد ووعرد ، غامرة بالبروق منادية بالرعود ، فمدت ستائر السحاب ، وصبت على الأرض سوط عذاب ، وظلت بالرعود صاعقة ، ورمت ذلك الضيغم بأعظم صاعقة ،فأنشبت المنية فيه أظفارها ، وأخذت الأيام منه ثارها . فلم يزل جاثما بفنائها ، باركا فى حومة فنائها ، والناس تهابه كلما عاينت جثته ، وتهرب منه وتخاف سطوته . فلما رأوه وقد طال جثومه

وقعوده ، طال انتظارهم لمضيه لصيده وما كان يروده ، فدنوا منه قليلا قليلا ، فلم يروا له حركة تنفرهم فدنوا منه فرأوه قتيلا .

فجاسوا خلال الديار ، ووردوا الأنهار ، واقتطفوا الزهور والثمار ، وأخذوا نفيس الجواهر والأحجار . ومكث شطارهم زمناً طويلا يأخذون تلك المغانم ، آمنين من بطش الأسود الضراغم ، فلما علم ذلك من بالحصن من دهماء الأراذل ، لكثرة ترددهم آمنين فى هاتيك المنازل ، خرجوا جميعاً لتلك الرياض ، واستولوا على البساتين والمعادن،والغياض ، فاقتطفوا جميع أزهارها ، وتجاوزوا عن اجتناء ثمارها لقطع أشجارها ، وكان ما كان ، إن لم يدل على الحوادث ففيها النقصان ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ؛ وإذا استولى النحس على قطر نفى السعد ، فما قام للدين عمود ، ولا اخضر للايمان عود ، فبدت أهوال المحشر ، وقال قائلهم : إنما أكلت يوم أكل الثور الأحمر .

من حلقت لحية جار له — فليسكب المـاء على لحيته

ولما مرض البخت ، وكان الطبيب يهوديا واليوم يوم سبت ، قلت :

عنك فؤادى ــ وحقك ــ ارتحلا — وكان بالقصر قبل ذا نزلا
يا عادلا عن رضاء خالقه — صدقت إن قلت : إنه عدلا
لست لعذل أصيخ مرتقبا — أن يسبق السيف عنده العذلا
فإنه قـــد أتى به مثل — ــ ولست ممن يكذب المثلا ــ
« سررت من دولة ظفرت بها — ومن سرور النفوس ماقتلا »
مات مراد الورى ومالكهم — تبـا لدهر ، بمثله بخـلا
أبعده زهرة الحياة زهت — أو أثمرت فى رياضها أملا
قالوا : «الليالى حبالى»فقلت لهم: — «قد وضعت بومة ببيت خلا »
ما بال مولاى فى وزارته — يرفع فوق الأفاضل السفلا
يأذن لى حاجب بسدته — وهو لباب الدخول قد قفلا
ولى انصراف عنه بلا سبب — فمـا له قـد تـكلف العـللا
مودة تشتهى مزورة(١) — عنها احتمى ذا المريض حين قلى

---

(١) شرح الشهاب المزورة فقال : هى اسم طعام يطبخ من غير لحم للمريض الذى يحتمي .

ذبحوا النقيب وولولوا ...!

الشاعر :

الشيخ عبد الله الشبراوى ـ عبد الله بن محمد بن عامر ـ ولد سنة ١٠٩٢ هـ . وتوفى سنة ١١٧٢ هـ .

من بيت علم . اشتغل بالإملاء والتدريس ، وحظى بمكانة مرموقة فى الدولة، وإليه انتهت رياسة المذهب الشافعى فى مصر .

له ديوان شعر ، مدح فيه البيت النبوى ، والأشراف ، وتغزل ، وغزله صناعى ولكنه سهل لطيف . وله كتابان فى العظة وتهذيب النفوس ، أحدهما (عروس الآداب وفرحة الألباب) ، والآخر (عنوان البيان وبستان الأذهان). وله كتاب فى غزوة بدر عنوانه (شرح الصدر) .

مناسبة الشعر :

فى سنة ١١٢٢ هـ زار القاهرة السيد عبد القادر نقيب الأشراف فى بلاد الروم، وبات ليلة واحدة ، وجد بعدها مذبوحا فى فراشه ، فأنشأ الشيخ الشبراوى هذه الأبيات .

النص :

أيها القوم ، ويحكم ، قد هدمتم بنية الله ، واتهمتم عبـــاده
وذبحتم هـذا المهذب غدراً وقطعتم بغلظـة أوراده
ثم نحتم عليه زوراً ، ولـكن ذاك أمر قضى الإله نفـاده
أيهـا النائحون ، مهلا ، فمن ذا نال من دهره الخئون مراده

لا تطيلوا على النقيب نحيبا فهو بالذبح نال أعلى سعاده
كم نبي ، وصالح ، وولي مات قتلا ونال أجر الشهاده
هـذه سنة الأماجد قدماً كحسين ، وسعد بن عباده

حاز هـذا الشريف لطفا من الله ، وساوى فى حوزه أجداده
لوفور الأجور ، والرتبة العلـ . . . يا ، وحسنى من ربنا ، وزياده
يا خليلى ، لا تأسفن ، وأرخ : قـدر الله قتـله وأراده
١١٢٢ هـ = ٣٠٤ ٦٦ ٥٣٥ ٢١٧

تحليل :

هذه أبيات فى الوفاء - وعلى وجه الدقة : دمعة حزن يسكبها الشيخ على النقيب المذبوح ، وينعى فيها الوفاء ، ويشجب الخيانة والغدر ، ويطعن القوم فى شرفهم، ويدل على خبث طويتهم . ويبدو أن العصر كان عصر مؤامرات ومكايد وفتن ، وأن الاغتيال - أو ما نسميه بلغة سياستنا العصرية (التصفية الجسدية) - كان أمرا معروفا ، وأن النقيب لقى البشر والترحيب لدى استقباله ، وأن الذين استقبلوه كانوا يبيتون له ، فأجهزوا عليه بليل ، ثم لبسوا فى الصباح مسوح الأيامى والثكالى، فبكوا وولولوا وناحوا ، وأظهروا الأسى والأسف . ولكن الشيخ كشف عن زورهم وبهتانهم ، وسجل عليهم غشهم وغدرهم .

وحادثة - كهذه الحادثة المنكرة - تفرض الانفعال الحاد بها ، والغضب الجاد على مرتكبيها ، والثورة العارمة فى وجوههم . ولكن القصيدة تخلو من هذا كله. ولم يكن الشيخ صديقا للنقيب ولا قريباً ولا مريدا ، وإنما علاقته به لم تجاوز الإطار الإنسانى العام . وعلى الرغم من أن شعر الشيخ لا يرقى - فى معانيه وأساليبه - إلى أكثر مما تراه ، يمكن أن نزعم أن استسلام الشيخ للقضاء والقدر دغدغ مشاعر الأسى لديه ، فأنشأ يقول : (ذاك أمر قضى الإله نفاده) ، ويكرر أن القتلة أسدوا إلى النقيب الشهادة ، وأنهم أعانوه على بلوغ المرتبة العليا إلى جوار الأنبياء والصالحين .

ومما يساعد على دمغ الشاعر بسطحية الانفعال أنه أنهى قصيدته بالتاريخ الشعرى ، وهو فن أولع به المتأخرون . وأدرجوه فى سلك البديع ، وطريقه أن يأتى الشاعر بكلمة أو عدة كلمات ، إذا حسبت حروفها المكتوبة بحساب (الجمل) نتج من جمعها رقم السنة التى أرخ فيها الشاعر لقصيدته ، تذكاراً لسنة إنشادها ، وتقع هذه الكلمة أو الكلمات مباشرة بعد لفظ (أرخ) أو مايشتق منه. وليس من شك أن الشاعر يقضى له بالبراعة إذا جاء تاريخه الشعرى وافيا بمعنى من معانى شعره ، ومرتبطا بسابق أبياته ارتباطاً فكريا . ولكن هيهات ! .

وهذا هو حساب الجمل :

أ	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ى	ك	ل	م
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠
ن	س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	
٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	
ض	ظ	غ										
٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠										

أمانة الكلمة

الشاعر :

ابن الأمير الصنعانى - البدر أبو إبراهيم محمد بن الأمير إسماعيل بن صلاح ابن محمد بن على بن حفظ الله الحسنى الكحلانى الصنعانى .

ولد سنة ١٠٩٩ هـ بقرية (كحلان) فى اليمن ، ونشأ فى كنف والده الأمير الصنعانى ، وعلى يديه تلقى مبادىء العلوم وحفظ القرآن ، ثم استأنف التعلم والحفظ فى صنعاء ، ثم فى الحرمين الشريفين : مكة والمدينة .

وقام فى اليمن بأمر الدعوة إلى الله والتدريس والتأليف ، وحظى بمكانة بين علماء اليمن ، وتولى نظارة الأوقاف فترة .

وكان قد تفقه على مذهب الزيدية - وهم من الشيعة - وأفتى فيه مدة ، ثم بدا له أن ينفض عن صدره إسار التقليد ، فسلك مسالك المجتهدين ، واعتمد فى اجتهاداته على الكتاب والسنة ، حتى سماه الإمام الشوكانى : (الإمام الكبير .. المجتهد المطلق) . وتعرض ابن الأمير الصنعانى للمحنة ، وآذاه عوام العلماء ، وسلطوا عليه الكافة ، فلقى عنتا ونصبا ، ومع ذلك لم يتوقف عن اجتهاده ، بل زاد نشاطه ، لحول جهاده إلى محاربة الفساد الذى استشرى فى اليمن .

وتوفى سنة ١١٨٢ هـ عن ٨٣ عاما ، وترك عدة مصنفات فى الفقه والحديث والتوحيد وغيرها تبلغ التسعين عدا ، كما ترك ديوان شعر فى أغراض شتى .

مناسبة الشعر :

جاء فى ديوان الشاعر أنه اطلع على سفينة (أى كناشة) لأحدهم ، وفيها مراثى لبعضهم فى كلب مات لبعض السادة ، فأملى على ابنه عبد الله هذه الأبيات .

النص :

كان السفائن سابقا   تأتى بأنواع الخطاب
وصف القدود ، أو الخدو   د ، أو الثغور ، أو الرضاب
أو مدح ملك قد سما   ورقى على هام السحاب
أو مدح من حاز العلو   م ، وصار كالبحر العباب
أو ذكر أيام الوصا   ل مع الأحبة والشباب
هذى المقاصد للقصيـ . . . د وروضهن المستطاب
وسفينة الولد النجيـ . . . ب أتت بمرثاة الكلاب
فالشعر أولى بالرثا   ء ، وبالبكاء والانتحاب
إذ صار طوقا للكلا   ب الميتات على الرقاب
هذا هو الخسف الذى   وردت به آى الكتاب
خسف لشمس الشعر وا   لقمر المنيرة والشباب
صلوا صلاة كسوفها   إن كان يشرع فى كتاب
فليحتسب أهل القريـ . . . ض لما أتاهم من مصاب

تحليل :

آلم الشاعر أن ينفق الشعراء شعرهم فى رثاء الكلاب . وأن يثبتوا مراثيهم هذه فى دفاترهم ، لتحفظ عنهم وتروى ، وتتناقلها الأجيال عبر العصور والدهور.

آلم الشاعر أن يمتهن الشعر هكذا ، وأن يتدنى حملة الكلمة فيجعلوها طوقا لإشهار كلب أو إعظام جرو ، أو ما أشبه ذلك .

والشاعر - من وراء هذا - يشهر بالنفاق الاجتماعى ، وينعى دولة الشعر التى دالت على ألسنة المنافقين الوصوليين من أمثال هؤلاء الذين رثوا الجراء ، فانحطوا

بالشعر إلى الدرك الأحط من المقاصد ، وخسفوا شمس الشعر خسوفا ، فاحتاج الشعر - وهنا يستقى من الشريعة - إلى إقامة الصلاة ، لرفع ما نزل بالشعر من عار النفاق ، وحطة الرياء .

والشاعر يطمع أن يسترى أمر الشعر على شرف المعنى ، وجاءت أبياته على هذا الطريق ، على الرغم من تخلخل أسلوب الشاعر وعدم استوائه . بيد أن دعوته جديرة بأن ننوه بها ، ونغليها ، ونعلى شأنها ، ونتخذها نقطة ارتكاز ، للانطلاق منها إلى سلامة الفكرة ، واستقامة المعنى ، وشرف الغرض ، وهذه رسالة الشعراء ، وسائر من يحملون أمانة الكلمة .

* * *

وكان الفراغ من هذا المصنف — بحمد الله وتوفيقه — لحظة أذان العصر ، يوم الأحد ثالث أيام عيد الأضحى المبارك سنة ١٣٩٥هـ ، الموافق الرابع عشر من ديسمبر سنة ١٩٧٥م.

محمد السعدي فرهود